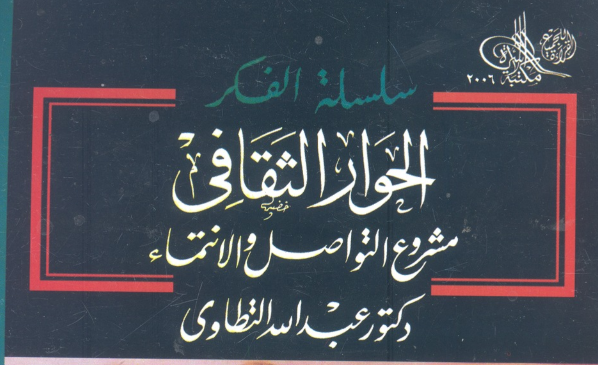
مكتبة الأسرة ٢٠٠٦
القراءة للجميع

سلسلة الفكر

الحوار الثقافى

مشروع التواصل والانتماء

دكتور عبد الله التطاوى





الحوار الثقافي

مشروع التواصل والانتماء



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف

د. مدحت متولى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى

أبو الخير

الجهات المشاركة

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الحوار الثقافي

مشروع التواصل والانتماء

دكتور عبد الله التطاوي



الحوار الثقافى

لوحة الغلاف للفنانة جاذبية سرى

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

التطاوى، عبد الله.
الحوار الثقافى: مشروع التواصل والانتماء/ عبد الله التطاوى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
١٩٨ ص ؛ ٢٤ سم. ـ (علوم إجتماعية)
تدمك ٤- ٢٩٧-٤١٩-٩٧٧.
١- الثقافة العربية
٢ - التغير الاجتماعى
أ. العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٤١ / ٢٠٠٦
I.S.B.N 977-419-297-4
ديوى ٣٠١،٢٠٩٥٣.

توطئة

انطلاقًا من شعار «مكتبة الأسرة» هذا العام: **الثقافة لغة السلام**، والذى طرحته السيدة الفاضلة **سوزان مبارك**، انتقت **مكتبة الأسرة** حوالى ٣٠٠ عنوان، حاولت أن تقترب من الأجواء الفكرية والثقافية والإبداعية لمفهوم قيمة ثقافة السلام ودعم التسامح، وتعميق قيمة المواطنة والانتماء والمشاركة والمسئولية المدنية، ودور مؤسسات المجتمع المدنى، وترسيخ قيمة دور المرأة وتعزيز قيمة التجدد الثقافى، والتفكير النقدى، والحوار، والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى. وأخيرًا إبراز تواصل الإبداع المصرى عبر أجياله المختلفة وتياراته المتنوعة.

إن **مكتبة الأسرة** من خلال سلاسلها المتنوعة تحاول استيعاب المشهد الثقافى والفكرى والإبداعى فى مصر عامًا بعد عام. وفى هذا العام تطرح أعمالاً جديدة، وتقدم أسماء لم تنشر من قبل فى هذا المشروع الرائد، وتقتحم مجالات فكرية وثقافية وأصوات إبداعية جديدة.

وسوف تدور عناوين **مكتبة الأسرة** ٢٠٠٦ فى فلك سلاسل الأدب، والفكر، والعلوم الاجتماعية، والعلوم والتكنولوجيا، والفنون، والمئويات التى تحتفى هذا العام مع العالم كله بمرور ستمائة عام على رحيل المفكر العربى الكبير **عبدالرحمن بن خلدون**، الذى يعد واحدًا من بُناة الحضارة العربية الإسلامية فى أوج عظمتها وازدهارها، ولأن هذه الحضارة كانت الأساس الذى قامت عليه

الحضارة الأوروبية الحديثة، فابن خلدون يعتبر نموذجًا واضحًا لأهمية حوار الحضارات وطريقة تواصلها.

سيظل هدف **مكتبة الأسرة** فتح نوافذ جديدة للقارئ المصرى للاطلاع على منابع الثقافة العربية والعالمية وتكوين ثقافته ومعرفته بأيسر السبل، والوقوف أمام ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والثقافى والعلمى والفكرى المستنير، حتى يستطيع القارئ مواجهة العنف والأصولية، والفخر بإسهامات أسلافه العرب فى تشكيل مسيرة الحضارة الإنسانية.

مكتبة الأسرة

تقديم

لئن كانت الثقافة مطلبًا فطريًا واجتماعيًا ودينيًا، فإنها باتت اليوم مطلبًا حياتيًا، وأصبحت علامة من علامات الحضور الإنسانى، ومؤثرًا من مؤثرات التواجد الفعال فى عصرنا الحالى، الذى صارت فيه المعرفة أداة أى تقدم، والثورة المعلوماتية أساس أية حضارة.

ولقد قامت نظرية الثقافة فى أمتنا على القراءة والتأمل والكشف والبحث والعلم منذ أن نزلت «اقرأ» وبذا كان العلم والتثقيف هو الحقيقة الخالدة للبحث عن الحقيقة ذاتها، وضمان بقاء الإنسان فى دائرة الوعى والوجود والفهم والمعرفة والإرادة. ومن هذا يصبح لزامًا علينا - نحن العرب - أن نقتحم الصعوبات، ونُعمل العقل من أجل تحصيل العلم والانخراط فى معترك التحدى والمنافسة، التى تقتضيها حركة التاريخ وواقع المرحلة، التى تشهد الآن ثورات تكنولوجية وتراكمات ثقافية ومنافسات علمية لا مثيل لها.

ولمؤلف هذا الكتاب د/ **عبد الله التطاوى** أستاذ الأدب العربى بكليةالآداب - ونائب رئيس جامعة القاهرة - العديد من الدراسات التى تهتم بواقعنا الثقافى، وتهدف إلى رقى الأمة من خلال إصلاح مناهج التعليم، أو من خلال تجديد الخطاب الثقافى، الذى تبدأ أولى خطواته بإعادة قراءة تراثنا العربى قراءة نقدية، وتحليله تحليلاً أمينًا ينتهى بنا إلى نقد الذات، مرورًا بضرورة الانفتاح على الآخر، وفتح القنوات المشتركة للحوار، والتفاعل مع الحضارات الأخرى

أخذًا وعطاءً من أجل تحقيق التواصل المنشود، الذى جعل أمتنا تشيّد فى القرن الثالث الهجرى حضارة إنسانية رائدة حينما فتحت نوافذها على كل حضارات العالم ولغاته وترجمت من وإلى اللغات الأخرى كالفارسية والهندية واليونانية والسريانية إبان عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد الذى أنشأ دار الحكمة وقلم الترجمة.

وينادى المؤلف فى هذا الكتاب بضرورة إنجاز مشروع ثقافى كبير ينطلق من اعتزازنا بتراثنا، وإعادة إحيائه وتجديده، مع الاعتراف بفكرة المشترك الثقافى كما يدعو أبناء الوطن فى نهاية المطاف إلى رفض كل محاولات الإصلاح الخادعة، التى تهدف فى واقع الأمر إلى «تغيير الثقافة» وإن كانت تتستر تحت قناع ما يطلق عليه «ثقافة التغيير».

ومن منطلق أن **«ثقافة السلام»** هى المحور الرئيسى لمكتبة الأسرة هذا العام، فإننا نعيد تقديم هذا الكتاب: **الحوار الثقافى مشروع التواصل والانتماء**، والذى صدرت طبعته الأولى فى يناير من هذا العام، لأنه يبرهن على أن ثقافتنا العربية بتجاوبها مع الحضارات الأخرى ثقافة حوارية، وليست صدامية أو صراعية، وأنها تقبل التعددية، وتنطلق من الاختلاف، وتنتهى إلى التسامح والتفاهم مع الآخر قبولاً وجدلاً من أجل بناء جسور التواصل الإنسانى.

مكتبة الأسرة ٢٠٠٦

المحتويات

مقدمة خاصة

حول ثقافة التثقيف

أرجو ألا ينزعج القارئ الكريم من هذا الاشتقاق المقصود، وألا يعتبره فذلكة لغوية، ولا تعقيدًا فى مرحلة تهاجم فيها العربية حتى من أبنائها ! ومن الأفضل أن نتقبله على الوجه الحسن، والمقصد الصحيح منه، وهو كيف نتعلم مناهج تثقيف شباب الأمة.

الأمر مرهون بعدة اعتبارات يمكن أن تنطلق منها بالفعل ثقافة التثقيف، قاصدة إلى تحقيق الصالح العام من منطوق تربوى قيمى سلوكي، بما يمكن تحديده فى خمس نقاط مبدئية، يمكن أن يضاف إليها الكثير كلما زاد الاهتمام بالموضوع، وأضاف المجتهدون ما يرونه مكملًا لها :

١- سلامة المرجعية وصحة المصادر، والبعد عن ضجيج الكتابات مجهولة المصدر، وتجاوز نبرة المزايدة، أو ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، مع احترام الاجتهاد شريطة امتلاك الأدوات، وتجاوز الأهواء والمغالطات، والاعتراف بالخطأ ومراجعة النفس أفضل من التمادى فى الباطل، وتقدير رأى الآخر مع حسن الجدل وقبول الحوار؛ ومرونة العرض والاستقبال.

٢- تجاوز الخطابية والإنشائية إلى العلمية المحددة والمنضبطة؛ فلا مبرر للاستغراق فى عالم الوهم، أو الانقطاع إلى الماضوية، دون تقنين الأشياء، أو الوقوف على الحقائق فى حيدة وموضوعية، مع إعادة قراءة الموروث من منظور نقدى يقوم على أسس الحوار والمراجعة والمناقشة، وينتهى إلى وجوب الإحياء والتجديد،

وقبول الإضافة والابتكار، وتيسير الغامض بما يتسق ومستوى التلقى على ما فيه من تعددية الأنماط.

٣- احترام الثوابت وقراءة المتغير من منظور علمي، بمنأى عن الانغلاق أو التعصُّب، وانطلاقًا من وجوب الفهم والوعي، وبناء فكر تحليلى قادر على المناقشة والحوار، بمنأى عن العنصرية والانكماش والتقوقع، وأيضًا بعيدًا من النرجسية والاستعلاء، أو الاستخفاف بمنطوق الآخرين، باعتبارهم أصحاب حق فى طرح رؤية وفكر وموقف وتجربة وخبرة.

٤- الاحتكام إلى الدليل والحجة والبرهان، ومراجعة الخبر التاريخى بين التواتر والإفراد، وقراءة النص بين التوثيق والاحتمال، والاستناد إلى الإقناع بعيدًا عن الطلاسم، أو افتعال الغموض، أو اصطناع الضبابية لإخفاء الحقائق التى قد تتجلى معالمها ـ أحيانًا ـ فى كتابات الآخر.

٥- إعادة قراءة واقعنا الثقافى بدقة، تتطلب منا التحليل الآمن لكل سلبياته، وإعادة تركيبه ومناقشة إيجابياته، قصدًا إلى بناء مشروع فكرى متميز يميل إلى المنهجية الواجب تطبيقها بين مقومات ونتائج، ومبررات وعلل، وقرائن وأدلة، إلى آخر ما يتطلب الحوار من معايير الصدق. والبحث عن جوهر الحقيقة.

لعلنا من هذه المداخل نقترب ـ نسبيًّا ـ من ثقافة التثقيف التى ربما أدلينا فيها ـ أو غيرنا ـ بدلوه، أو اقتربنا من واقعها وطرحنا رؤية مستقبلية مناسبة حولها.

والله ـ سبحانه ـ ولى التوفيق.

عبدالله التطاوي

القاهرة ٢٠٠٥م

تمهيد خاص

المدخل الطبيعى إلى نظرية الثقافة

لم تعد الثقافة ترفا ولا تزيدا، ولا هى من دلالات الوجاهة كما كان الحال فى زمن مضي، ولكنها أصبحت جزءا لا يتجزأ من ضرورات الحياة، وعلامة من علامات الحضور الإنساني، ومؤشرا من مؤشرات التواجد على ساحة الحدث اليومى لاسيما فى عصر العولمة بكل أشكالها.

ولم تعد الثقافة مطلبا طبقيًّا، ولا حقا خاصا لفئة دون أخري، فالمعرفة بالمنطق الحكمى التقدمى حق للبشر بقدر ما يتاح لهم منها، وبقدر ما يستعدون لاستيعابه من موادها ومعطياتها.

أن يملك المواطن الثروة فهذا شئ عظيم، وموقف أعظم فى هذا الزمان الذي لايعترف بالفقراء ولا يحترم حقوقهم، ولِمَ هذا الزمان؟ إنها قصة الفقير فى كل الأزمان منذ سطرها الشاعر الصعلوك عروة بن الورد، مبررًا خروجه زعيمًا شعبيًّا لرفاقه الصعاليك:

ذرينى للغنى أسعى فإنى ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأدناهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حَسَبٌ وخِير
يباعده القريب وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
ويمسى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه، والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور

فبدأ الشاعر أمينا مع نفسه وواقعه فى تعرية الصورة الحقيقية لموقع الفقير والغنى على خريطة الحياة، بلا مواراة ولا خلط للأشياء، ولا تزييف للحقائق.

وهكذا يصبح مطلب الغنى والثروة مشروعا إنسانيا طبيعيا شريطة أن يجتهد الإنسان فى تحصيلها - أى الثروة - أو تحصيله - أى الغنى - بعيدا عن استغلال الآخر أو المخادعة، أو غيرها من أساليب ملتوية لا تقرها الشريعة ولا ترتضيها الفطرة القويمة.

أن يملك المواطن الحرية فهذا أغلى ما فى وجوده، لأنها معيار تقدمه ونبوغه، ففى ظلال حريته الحقيقة يستطيع أن ينتج، ويكتب ويبدع ويبتكر، وينطلق فكره عبر آفاق رحبة دون استشعار الكبت أو الاضطهاد، أو الوقوع فى براثن الغبن الاجتماعي، أو القهر الإنساني، فمن خلال حريته يتجاوز الإنسان منطقة التهميش والضياع، ويعلو على كل صور الفقد والحرمان، ولا يقبل بحالات الانهزامية أو الهروبية أو منطق الاستسلام؛ فالإنسان الحر الشجاع يستثمر حريته، وينمى مسارها، فى منعطف التفاعل مع الآخر شريطة ألا يتعدى على حرية الآخرين، أو أن يسلبهم منها شيئًا، فبين الحرية والرق مسافات يصعب التحقق منها، وبين الحريات ذاتها خيوط رفيعة ترقى بها عن حدود الفوضي.

وتظل حرية الشعوب مدخلا إلى مشاركاتها فى حكم أنفسها، فالحرية - بالمعيار الفردي- هى المدخل الطبيعى إلى الحياة الصحيحة، وعلى المستوى الجماهيرى تظل مرتبطة بقدرة الأمة الحرة على المشاركة الفاعلة فى اختيار حكامها وحكمائها ونوابها على النحو الذى يتجلى فى تداول السلطات، واحترام مقدرات الشعوب وتعددية المصادر بين سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية تستهدف - فى مجملها- تحقيق المقاصد العليا للإنسان، وتحقيق التكامل والتصالح فى علاقات البشر.

أن يملك الإنسان السلاح؛ فهذا مطلب عادل شريطة ألا يسىء استغلاله فى العدوان على الآخر، أو النيل من أرضه وعرضه ودمه وإنسانيته، ولا سيما إذا كانت

الحقائق المؤلمة التى تلمسها الشعراء تجعل من الظلم سلوكا إنسانيا يكمل طغيان الإنسان إذا امتلك القوة:

والظلم من شيم النفوس فإن ترى ذا عفة فلعله لا يظلم

وهو ما يزيد قبحا حين يمتد إلى ظلم ذوى القربى، الذى تألم من جرائه الشاعر القديم استنكارا واستهجانا:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

ولذلك كان مطلب القوة لحماية النفس من الظلم أو سطوة الظالم، وجرم المعتدي، وجناية الطاغية، ولم يكن مطلوبا إلا دفاعا عن النفس منذ سطر الشاعر رؤيته:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يُهدم، ومن لم لا يظلم الناس يظلم

وظلم الناس هنا ليس أمرًا مطلقًا، ولكنه مقيد بالقدرة على الدفاع عن النفس، وممارسة القوة ضد الظالم فى زحام العالم الآثم بالطغيان وهيمنة القوة وسطوة الجبابرة، حيث يصبح مطلب تسليح الإنسان بها أمرًا مهمًا ومشروعًا مباحًا وضروريًا، حتى يضع له الخصم اعتبارًا وحسابًا، قبل التفكير فى العدوان عليه، مما يجعل القوة مدخلًا طبيعيًا إلى سلام الأقوياء.

وقد دعا الإسلام أهله لأن يكونوا أغنياء، وأن يتركوا أبناءهم كذلك حتى لايتسولوا الناس، ولا يتكففوا العطاء، ولا يريقوا ماء وجوههم على أعتاب غيرهم، فكانت اليد العليا خيرًا من اليد السفلي، ومن ثم كان مطلب التكافل والتقارب واردًا فى فريضة الزكاة على حد تحليل أمير الشعراء للظاهرة الاجتماعية:

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء

كما دعا الإسلام أهله لأن يكونوا أحرارا، فأمرهم شورى بينهم، وكان المصطفى عليه السلام مدعوًا إلى المشاورة فى الأمر، وألا ينفرد بالرأى واتخاذ القرار إلا إذا

جاءه الأمر وحيًا إلهيًّا، فكانت حرية الإنسان هبة إلهية، ومنحة ربانية حيث أعطاه ربه منحة العقل، وفتح له أبواب الكون؛ ودعاه لأن يتأمل ويفكر ويتدبر، ويقف عند أسرار العالم، لاسيما أنه مكنه من أدوات العلم منذ استخلفه فى الأرض، وعلم آدم الأسماء كلها، وفتح أمامه أبواب الاجتهاد بعيدا عن الشطط، الذى يجور على الحقائق والمسلمات أو احترام قضايا الغيب أو المساس بقضايا الإيمان.

ودعا الإسلام أهله لأن يكونوا أقوياء، فالمؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، ولكنها القوة المشروعة لضمان سلامة البشرية بعيدا عن الطغيان والعدوان، فكان القانون صريحًا " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" فكان مطلب رد العدوان بمثله، والفرق بعيد بين المبادأة بالعدوان والاكتفاء برده، المبادأة طغيان وجبروت وصلف وغطرسة وفوضي، والثانية حماية ووقاية ودفاع وأمان وسلام ورخاء.

ثم نأتى إلى بيت القصيد من مطلب التثقيف الذى يعد المدخل الحقيقى لإنسانية الإنسان، منذ نزلت " اقرأ" فنشأت نظرية الثقافة للأمة القارئة للواقع ولنفسها، الباحثة عن الحقيقة، والكاشفة عن أسرار الكون، فكان العلم طريقها إلى التقدم والبقاء، وكان الجهل كارثة الآخر فى الاستسلام لمعايشة القهر وارتياد الظلام، وكانت "اقرأ" هى مفتاح البشرية منذ كرم الله الإنسان بأن سخر له كل المخلوقات لأنها لا تقرأ، وفتح له أبواب الخير لأنه يتعلم ويعلم، ويأخذ بالأسباب ويختار السبل، ويميز الوسائل، ويتبين الخطوط الفاصلة بين الفضائل والرذائل، بين ما هو خير وما هو شر، ويقف عند الكون مفلسفًا رؤاه وحقائقه، محللًا ظواهره وأسراره؛ فكانت مبرراته التفضيل للمؤمن العالم عمن سواه، وكان تكريم الله للعلماء، وكان تعزيزه للذين يعلمون على من لا يعلمون، وكانت الإشارة إلى سؤال أهل العلم والذكر باعتبار علو منازلهم.

والعلم هو الأصل فى الثقافة إذا أخذناها بمفهومها الموسع الشامل لكل ما يفكر فيه الإنسان، وما يبدعه، وما يحلم به، فكان العلم أصلا فى تكريم الإنسان،

ولذلك طولب به فريضة على المسلم والمسلمة على حد سواء، فكان فرضًا واجبًا، ولم يكن فرض كفاية، ومن ثم كان مطلوبًا أن يسعى الإنسان إليه زمانًا من المهد إلى اللحد، ومكانًا ولو فى الصين فى أقصى جنبات الأرض. من هنا كان تحضر الإسلام وصلاحيته لكل الأزمان والأماكن؛ إذ إنه دين العلم والعلماء، ومطلب التثقيف فيه واجب لأولى النهى وأولى الألباب، وكان تكريم الحكماء والعقلاء على السفلة والجهلاء مكملا لنفس النسق.

فالتثقيف ـ بهذه المعايير – مطلب حياتى وفطرى واجتماعى وديني، يبصر الإنسان بحقائق المعرفة، ويكشف عن واقعه ستار الغموض أو الزيف، وينهى فصلا من صراعه مع قوى الطبيعة والكون لصالحه فى كل الأحوال.

والتثقيف – بهذه المعايير أيضًا – أمر مطلوب لضمان البقاء من خلال امتلاك أدوات القدرة عليه من واقع الفهم والإدراك والوعى والتأمل والتفكير والتحليل والتساؤل؛ الأمر الذى ينمو ويزدهر من خلال قراءة الآخر، لاسيما إذا كان العلم الخلوق الداعى إلى سلام الإنسان مع نفسه ومع من حوله:

والعلم إن لم تكتنفه شمائل　　للقوم كان مطية الإخفاق

ورحم الله شاعر النيل :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم　　لم يبن ملك على جهل وإقلال

ورحم الله أمير الشعراء حين جمع معطيات تفوق الأمة من خلال قيمها وثوابتها:

الدين يسر، والخلافة بيعة　　والأمر شورى ، والحقوق قضاء

فالعلم والتثقيف هو الحقيقة الخالدة للبحث عن الحقيقة ذاتها، وضمان بقاء الإنسان فى دائرة الوعى والوجود والفهم والمعرفة والإرادة، فما بالنا به – أى

الإنسان- فى عصر التحديات المعرفية والثورات التكنولوجية والتراكم الثقافي، والتنافس العلمى والزحام المعرفى إلا أن يأخذ بالأسباب ويقتحم الصعوبات تحصيلا للعلم، وتأمينا للعقل وإعمالا للفكر وصولا إلى قائمة الأقوياء بما يدعو إلى تحية المثقف ودعوته دائمًا إلى المزيد من التثقيف والارتقاء، ومواكبة أحدث ثورات العلم استعدادًا للانخراط فى معترك التحدى والمنافسة، التى تقتضيها حركة التاريخ وواقع المرحلة.

أولاً : أصـــــول

١- رحلة الثقافة العربية : من الموسوعية إلى التخصص

٢- الأصل فى ثقافتنا : الحوار مع الآخر

٣- ثقافة الاختلاف وقبول التعددية

٤- نحو التأصيل لمفهوم المشترك الثقافي

٥- حضور الثوابت فى سياق المتغير

٦- حرية الإنسان فى الثقافة العربية

٧- العرب ونهضة الحضارة الأوربية (حوار أم صراع)

٨- ثقافتنا فى عالم متغير

١

رحلة الثقافة العربية
من الموسوعية إلى التخصص

من الملامح البارزة المميزة للثقافة العربية طول رحلتها التاريخية، التى تعكس أصالتها وعمقها وإنسانيتها وقدرتها على التواصل والبقاء بعيدا عن الانقطاع المعرفي، أو التراجع الفكرى بين أبنائها إلا من خلال فترات تمثل جملا اعتراضية فى تاريخها بحكم الهجمات الاستعمارية الشرسة، وما تحمله بين جنباتها من روح المؤامرة التى تستهدف – غالبًا – التخلص من كل ما هو إنسانى وأصيل وعريق من منطلق الكراهية حينا، والحقد فى معظم الأحوال.

ومنذ أنشأ هارون الرشيد دار الحكمة فى بغداد عاصمة الخلافة ودار السلام ازدهرت ثقافتنا العربية عبر كل مسارات الفكر ومساقات العلوم التى قام على تأسيسها علماء أفذاذ ألفوا، وصنفوا، وجمعوا وشرحوا، وحللوا وفسروا، ونقدوا وترجموا، وأضافوا وابتكروا، وجددوا وشاركوا وأبدعوا، فكان لهم فضل عظيم فى سياق التحضر والتقدم العلمى حيث علموا الدنيا من حولهم أصول الفكر، ومناهج الابتكار والاختراع، وسبل الإبداع والتفوق على الذات، والتثاقف مع الآخر.

ولا يقول قائل إن فى هذا المبالغة أو ادعاء أو مباهاة أو انبهارا أو افتعالا، أو تزيدا، فالحقيقة التاريخية شاهد أمين على صدق ما نردده حول تميز الثقافة العربية برحابتها وقيمها الإنسانية الرفيعة، التى فتحت نوافذها على العالم لتتلقى كل

المشاركات الفاعلة بعيدًا عن منطق التعصب أو العزلة أو الإغلاق أو التقوقع وأو النرجسية.

وبعيدًا عن باب المدح والثناء والإعجاب بثقافتنا – وإن ظل هذا حقًّا لنا وواجبا علينًا – تظل شواهد التاريخ دالة بذاتها على منهجية رحلتها عبر الموسوعية التى تميز بها علماؤنا الكبار، صحيح أننا نردد من الأسماء ما اقترن بالتخصصات العلمية المحددة، ولكن الطابع الموسوعى كان أصلا لحركة الفكر بوجه عام، وإلا فكيف نصنف الجاحظ مؤرخًا من خلال مؤلفاته للعصر العباسى فيعرف مواقع خلفائه ووزرائه وكتابه وشعرائه معرفته ببخلائه وسفهائه وقيانه وجواربه، ثم معرفته ببلاغته وبيانه ونقده وعلمائه وعلومه وفكره وشعرائه ومبدعيه، ويمتد الأمر إلى التعرف على حيوانه وحشراته وصحرائه، ومجالسه ومناظراته، ومساجلاته ومطارحاته، وخصوماته، ومعظم مشكلاته. فماذا لو كان الجاحظ ينطلق من منظور التخصص فهل كان من الممكن أن نتلقى بيانه وتبيينه تلقينا لرسالة القيان أو البخلاء أو الحيوان أو غيرها من مصنفاته المعروفة.

ولم يكن الجاحظ بدعًا فى هذا بقدر ما كان نمطًا سائدًا وسائغًا، فحين نذكر الشيخ الرئيس ابن سينا لا يسهل علينا تصنيفه فيلسوفًا، كان أم شاعرًا أم مؤرخًا أم ناقدًا أم طبيبًا أم عالم قانون إلا أن يكون جامعًا كل هذه، وتلك فى مناشط إنسانية غاية فى الرقى والوعي، فإذا به يضع فى الطب كتابه "القانون" ويؤلف فى القانون كتابه "الشفاء"، وبينهما من الدلالات الكثير على تلاقى فروع المعرفة وتكامل أبوابها، بعيدًا عن الانحسار فى دائرة التخصص التى قد تفقد المثقف أشياء كثيرة إذا لم نتعامل معها بحذر ودقة منهجية.

هكذا كانت العقلية العربية باتساع آفاقها الرحبة قادرة على تحقيق المشروع الثقافى العربى المتكامل بشكل تلقائى وعفوى دون تعقيد أو إملاءات أو توجيهات أو افتراضات، فكان المسار طبيعيًا لمنظومة الفكر العليا بهذا التجانس، وذلك التلاقى والتوحد الذى يعكسه المثالان اللذان أردنا منهما فقط إثبات الموقف، والأشباه كثيرة ومتعددة فروع تلك الثقافة.

وتزداد سعة الأفق العربى حين ينفتح على الآخر من خلال قلم الترجمة الذى شهدته دار الحكمة بجوار علوم الأوائل، حيث شهدت بغداد والكوفة والبصرة شوامخ الرواة والعلماء ينزلون إلى البادية لجمع المادة الإبداعية من أفواه أبنائها، أو يستقبلون من يرحل من البادية إلى المدن ليدونوا ما حفظته الذاكرة يحفظه فى أمهات الكتب فى عصر التدوين، وإلى جوار كل هؤلاء كانت مدارس الترجمة من العربية وإليها عبر اليونانية والسريانية والفارسية والهندية. ولولا هذا الانفتاح والقبول للآخر لأصيبت هذه الثقافة بالجمود والعقم والشلل، ولفقدت إبهارها الذى ملأ الدنيا القديمة شرقًا وغربًا فى إشراقات فكرية رائعة.

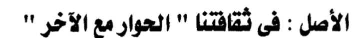
أما وقد تميزت ثقافتنا بكل هذه الملامح وأشباهها، فقد طالت رحلتها واستمرت على الرغم من العقبات والصعوبات التى واجهتها فمثلت خطوبا وكوارث كبرى، ولكنها تجاوزتها، وظلت بشموخها قادرة على البقاء، حتى فى أشرس مراحل المد الاستعمارى فى الأرض العربية التى انتصرت بإرادة شعوبها وقادتها.

واستكمالا لمرونتها وحيويتها استطاعت أن تواكب ثقافات العالم الجديد فى توجهها إلى التخصص العلمي، وهو مطلب حتمى فى عصر الثورات العلمية وتراكم المعرفة؛ الأمرالذى يحتاج – بدوره- قدرة واعية على المنافسة والإجادة والاستيعاب مع المشاركة والابتكار، من هنا كان التوجه إلى التخصص العلمى الدقيق موقفًا عصريًا حضاريًا، لعلنا نستطيع من خلاله الوصول إلى الصيغة المثلى فى وجود الطبيب الممتاز والمهندس المتمكن والفنى الواعى بدقائق حرفته، والعالم المفكر الملم بجوانب تخصصه وهو مطلب عصرى وواقعى فى غاية الأهمية، ولكنه يظل فى حاجة إلى التثاقف والتلاقى مع الموسوعية فى توظيف العلوم المساعدة.

وحتى نقرب المسافة بين فضل القدماء ومطلب المعاصرة، تظل العلوم البينية والقراءات المساعدة مدخلًا مهمًا وضروريًا وعصريًا أيضا فى بنية المثقف العربى

وتشكيله بصورة صحيحة، فمن الطبيعى أن يتهيأ له من المادة القرائية التثقيفية ما يساعده على اصطناع مزاوجة أمينة وصادقة فى الإلمام بتاريخ العلم (المتخصص) وفلسفته وأهدافه وبرامجه وإنجازاته، وبين دائرة أو حتى – دوائر – التثقيف العام الذى يظل – أو ينبغى – مطلبا حتميا لاستكمال المشهد الثقافى الصحيح، وإلا فمن غير المنطقى أن نجد طبيبا يتلعثم فى لغته، أو لا يستطيع توصيل الفكرة، أو النظرية أو المعلومة، أو نجد طبيبا لا يهمه – مثلا – معرفة دور الرازى وابن سينا وابن الهيثم وابن النفيس فى تاريخ الطب، وهكذا تكون المادة القرائية المتاحة قادرة على التأصيل لمثقف موسوعى لا على طريقة القدماء، فهذا مطلب صعب المنال، ولكن – على الأقل- قريبا منهم احتراما لدائرة التخصص من جانب، وإيمانًا بتداخل العلوم وتكامل انسجتها وبنائها الإنسانى من جانب آخر، فالثقافة كل لا يتجزأ، ولكن مطلب التخصص يظل واردًا مع اتساع دائرة المثقف إلى ما سواه من اهتمامات، تظل مكونًا أساسيًّا من مكوناته دون انفصام أو قصور.

٢



الأصل : فى ثقافتنا " الحوار مع الآخر "

يبدأ المنطلق الثقافى الآمن من درجة الانفتاح على الآخر، واحترام الرأى المضاد، وفتح قنوات مشتركة للحوار، أخذًا وعطاءً، بعيّدا عن التعصّب والانغلاق، وبمنأى عن النرجسية أوالهيمنة والتسلط.

والحق أن المسافة بعيدة بين قضية الصراع ومستويات الحوار، وهو ما تشهد به ثقافتنا العربية دون انحياز لها، أو ادعاء حولها، أو مزايدة عليها، فحين نحتكم إلى التاريخ عبر رواياته وأخباره وشواهده ونصوصه يزداد الأمر جلاء وإبهارًا إزاء عدة معالم، نقرأ منها مبدئيًّا :

أولها : أنها ثقافة حوارية من الطراز الجيد تقبل التعددية، وتنطلق من الاختلاف، وتنتهى إلى التسامح والتفاهم مع الآخر قبولا أو جدلًا، دليل ذلك تعددية المدارس التى كانت الأصل الذى نهضت على أساسه ثقافتنا فى كل فروع العلم وساحات المعرفة، بين مدارس المحافظين والمجددين، مدارس اللغويين والفلاسفة، أهل النص وأهل الرأي، مدارس المتن ومدارس السند، علوم الأوائل والعلوم المترجمة، قضايا القدم والحداثة، الوساطة والموازنات، والأشباه والنظائر، وكذلك كانت حوارات النقاد، الزهاد والزنادقة .. إلخ.

صحيح أن صراعًا ما قد نشب بين بعض تلك المدارس، وتجلت بعض صوره فى منطق الهجوم أوالدفاع، ولكن المؤكد – أيضًا – أن ثمة مصالحة معرفية قد

قبلت تعايش المدارس المتنافسة، فوصلنا تراثها وفكرها فكان حواريًّا قبل أى اعتبار آخر ولا أدل على ذلك من تجاوز قلم الترجمة فى دار الحكمة التى أسسها الرشيد فى دار السلام(بغداد) مع علوم الأوائل، التى مال علماء العربية إلى تدوينها فى تلك الفترة.

ثانيها : أنها ثقافة إنسانية بدأت من الإنسان وانتهت إليه، فلم تعرف الانشغال بالأجناس، أو مولد العلماء، قدر انشغالها بثقافاتهم، ونشأة الفكر لديهم، ودليل هذا ما تمتع به علماء العصر العباسى - مثلا - ومبدعوه من جمع رائع بين موروث البادية العربية فى صفائها ونقائها وبين ضجيج الحضارة العباسية فى صخبها الحضارى موزعا بين عناصر عربية، ومشاركات فارسية ويونانية وهندية وغيرها، لينتهى الأمر لصالح البعد الإنسانى فى ثقافتنا، لأنها ثقافة الحوار مع الآخر، فكان معظم أقطابها من غير العرب مولدًا، وهم عرب بلغتهم وتكوينهم ومصادر فكرهم، ظهر منهم حماة العروبة، والمدافعون عن تاريخ العرب على طريقة الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما. أما العلماء فالحديث حولهم طويل يجب على الناشئة والشباب معاودة قراءته، ليعرفوا جوهر الأدوار العلمية فى ثوبها الإنسانى الراقراق من لدن موسوعية ابن سينا، إلى الخوارزمي، والرازي، والجرجاني، والبخاري، وابن حيان وابن الهيثم، وابن النفيس، والكندي، والفارابى وغيرهم .

فلو كانت ثقافة صراع أو تعصّب لشُغلت بمعارك فرعية، ولم تقدم للإنسانية هديتها الكبرى بمعزل عن فكرة الأجناس والانتماءات والأديان والمذاهب حين تكلم العلم بالعربية على مدار ثمانية قرون من عمر الزمان، علّم فيها الإنسان كيف يكون إنسانًا.



ثقافة الاختلاف وقبول التعددية

منطق الأشياء بذاته وفطرته يبدأ من الاختلاف لينتهى إليه؛ ذلك أن التعددية تظل أصلًا للأشياء، وجزءًا من حكمة نظام الكون الذى أعده إله واحد، ثم قضى بانعدام الوحدانية إلا له، وما عداه – سبحانه – فهو تعدد بتعدد الموجودات، بين خير وشر، فضيلة ورذيلة، حق وباطل، جمال وقبح، نور وظلام، ليل ونهار، رجال ونساء، ذكور وإناث فى بقية الكائنات، أحياء وجمادات ... إلخ.

وظلت التعددية المدخل الطبيعى لمسيرة الكون، وبقى الاختلاف لغة معيارية ترفض الجمود والانعزالية والتقوقع والانطوائية، بل بقى الاختلاف أصلًا للحوار ومدخلا إلى تقدير الآخر، وتعزيزًا لمستويات الصراع وأطرافه؛ ذلك الصراع الذى ظل حاكمًا لمقاصد الحياة البشرية على مدار حركة التاريخ، وهو مطروح أصلًا من منظور الاختلاف والتضاد بين الأشياء، منذ صراع الخير والشر ماثلَيْن فى مقتل "هابيل " على يد أخيه قابيل، إلى تواصل أشكاله وأطرافه فى الصراع الطبقي، بين الغنى والفقير، بين القيم والانحلال، بين الحرية والاستعباد، بين المطلق والنسبي، بين العام والخاص، وهو ذاته الصراع بين الحياة والموت، بين الفناء والخلود، بين الواقع والوهم، بين العاطفة والعقل، إلى غيرها من مرتكزات الـمُكوّن الإنسانى المكون فى منظومة الوجود، والضامن لاستمرارية معترك الحياة.

من هنا تبدون ثقافة الاختلاف دافعًا قويًّا لاحترام سنة الوجود، وضامنًا أساسيًّا لسيرورة الأشياء منذ دفع الله الناس بعضهم ببعض، وخلقهم شعوبًا وقبائل

ليتعارفوا، ومنذ أقرَّ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بالرحمة فى اختلاف أئمة الأمة، ومنذ فتح الإسلام باب الاجتهاد فأثاب من أصاب بأجرَيْن، ومن أخطأ بأجر، مؤكدا بذلك تقدير منزلة العقل البشري، واحترام الفروق الفردية فى رؤية الأشياء.

من هذه المبادئ والمنطلقات يتوجب قبول التعددية والاختلاف، بعيدًا عن التشنجات والحصار العقلي، أوالمصادرة الفكرية على منطق الآخر أو المزايدة عليه، حيث يجب السماع والوعى ، ثم تحليل القول قبل إصدار الأحكام، وكذا قبل التشبث بالرأى الذى قد يفرضه تضخم الأنا أو يطرحه وتوهج الذات، أو يهيمن عليه منطق الاستعلاء.. وبقياس إبداعى بسيط اشتد الصراع واتسعت دوائره بين المدافعين عن قصيدة النثر الحديثة وبين حماة التراث الذين يذودون عنه من باب الإحياء والتجديد والإضافة والابتكار، وهو صراع يمكن أن يهدأ انطلاقًا من قراءة فصول التاريخ فى تعايش الأنواع الأدبية فى مصالحة وهدوء على ما فيها من التعددية، بين الملحمة والشعر والمسرحية والأسطورة، ثم القصة والرواية والأقصوصة، وهى التعددية الواردة حتى فى شعرنا القديم ذاته، بل حتى فى أخص ملامحه التى انطلق فيها من ستة عشر وزنًا، تمخض عنها إبداع الشعراء قبل مسعى الخليل إلى جمعها وتصنيفها، وقبل استكمال الأخفش لها بالبحر السادس عشر.

وحتى فى تصانيف الأوزان ظهر فيها التمام والاجتزاء من خلال المجزوءات والمشطورات، وكان من قبله الاختلاف بين القصائد والمقطعات، وبين الفصيح والزجل، وبين القصائد النمطية والموشحات .. إلخ.

هى التعددية ذاتها الواردة فى حركة الفنون مع تعدّد الأدوات، وتنوّع صيغ التشكيل الجمالى بين فن الكلمة مدخلًا للإبداع المكتوب، وفن الصوت فى الموسيقى، وفن اللون فيما تجود به ريشة الرسام.

انطلاقًا من هذه المزاوجات والثنائيات- وتأسيسًا عليها- أيضا - يظل

الاختلاف مدخلًا آمنًا لاستمرار الحياة، وجزءًا لا يكاد يتجزأ من مقوماتها، حيث تعايشت مدارس التجديد مع مدارس المحافظين، وتلاقت مدارس النقاد مع مدارس الشعراء سلبًا أو إيجابًا، وكان هذا هو المدخل الفاعل لقبول الآخر، حيث يبقى منه الصالح، وينتهى غيره، طبقًا للقياس الكونى للصلاح والبقاء حول الزبد الذى يذهب جفاء، ليبقى ما ينفع الناس ماكثًا فى الأرض.. وهكذا تأتى الأصوات الجوفاء التى طالما طرقت واستهلكت فى معترك مفتعل حول رغبة خصوم اللغة فى النيل منها، فانتهت الأصوات وتلاشت النداءات، وعاشت اللغة عبر الأجيال، لاسيما حين ذاد عنها حُماتها وحراس مناهجها دون إفراط أو تفريط، ودون انغلاق أو جمود.

٤

نحو التأصيل لمفهوم المشترك الثقافى

لم يعد الوقت ولا المرحلة تسمح باجترار مفردات الصراع الحضارى التى ثبت فيها التجاوز للحقائق، ولا حتى مفردات الحوار باعتبارها النموذج الأفضل للتثاقف ولقاء الأفكار، وتجانس المواقف؛ ذلك أن البحث فى دائرة المشترك الإنسانى قد تبدو أكثر فائدة من قبيل التأصيل لكل ما هو إنسانى جامع بين البشر بعيدًا عن التقسيمات المصطنعة بين الأجناس، وأهل الأديان، وعبر الزمان والمكان.

يبدو المنطلق الأساسى فى المشترك مسجلا فى النص القرآنى الكريم فى قوله تعالي: "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" صدق الله العظيم؛ حيث إن التلاقى فى الأصل واحد ووارد فى وحدة الخلق، ثم جاءت التعددية مدخلًا ضامنًا للعودة إلى المشترك فى باب التعارف، وتوظيف لام التعليل (لتعارفوا).

ويمتد المنطلق عبر جوامع الكلم فى جمل موجزة، حدث بها الرسول ﷺ الناس جميعا فى حجة الوداع، حين خاطبهم قائلًا:

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى ، أكرمكم عند الله أتقاكم.

فهى إذًا وحدة المعبود الخالق، ثم وحدة الأصل والنشأة، ثم وحدة المصير والمطاف وبينهما رحلة التعددية المنتهية إلى منطق (الكل فى واحد).

ولنسمح لأنفسنا – مؤقتًا- أن نستعير من توفيق الحكيم شعاره فى "عودة الروح"، التى طبقها على المصرى القديم والمعاصر من حيث البحث عن الرمز والمعبود للالتفاف حوله تحت هذا الوازع النفسي، حتى وجدنا الظاهرة تمتد إلى الإنسان باعتباره إنسانًا، له فكره وملكاته وقدراته وإبداعه، وله أيضـا تفرُّده وتميزه ومواهبه التى يكمل بها عطاء الآخر؛ فهذه التكاملية تظل شاخصة فى منطق الأشياء منذ نبه أفلاطون إلى روح الوطن وجسده بين الفلاسفة وأصحاب الحرف اليدوية، وهى التكاملية ذاتها التى تحكى فصولا من قصة الإنسان عبر صراعه مع الكون والطبيعة، وحتى مع نفسه ومع أخيه الإنسان، لينتهى بإرادته- أو حتى دونها- إلى صناعة هذا التكامل، أو الخضوع لذلك المشترك بمساحاته بكل روافده الحضارية والثقافية والدينية، مع تواصل خبرات الشعوب، وتبادل القيم والمنافع، وتبادل صيغ الدفع والوعى الإنسانى بكل ما يتطلبه من نبذ الخلاف، والاندفاع إلى منطق التلاقى والتقارب.

من هنا تتحول فرضية المشترك الثقافى إلى واقع وتجربة، يجب التوجُّه إليها والآخذ بها من قبيل الدرس الموضوعى القراءة المنهجية، والتوصيف الصحيح للحقائق، بعيدًا عن الانحياز لفكرة مسبقة، أو الانقياد خلف منطق التعصب، والعنصرية لمن يرون فى أنفسهم نمطًا وبقية البشر من نمط آخر.

لعل البحث فى هذا السياق يأتى مدعومًا من طبيعة الفكر الدينى ذاته عبر منطلقاته الكبرى الأصلية من وحدة المصدر، وتوحيد الإله الواحد الأحد فى كل الديانات السماوية إلا ما ورد من باب التجاوز أو الافتراءات، وهذه لها شأن آخر، وسياق مختلف على غرار ماورد فى المذاهب -وليس الأديان- من باب الثنوية، أو الشرك فى الألوهية المطلقة، تلك التى انتهت إليها الفطرة السليمة للبشر فى عبادة الخالق وليس المخلوق، الذى لا طاعة له فى معصية الخالق الأعظم جل شأنه.

فى عباءة الإسلام دعوة صريحة إلى وجوب الإيمان بكل الرسل والرسالات " لا نفرِّق بين أحد من رسله "، وهو استكمال الإيمان بالله وكتبه ورسالاته؛ الأمر

الذى يجعل الإسلام بابًا واسعًا لطرح قضية المشترك الثقافى فى دعوته للإصلاح والأخوة والمساواة، والتكافل والتكامل، والشورى ... إلخ.

وفى عباءة الثقافة الإسلامية، كان هذا المشترك الذى اندمج فيه العربى مع أخيه الخوزى مع البخارى مع الخوارزمى مع الجرجانى دون تفرقة، ولا اعتراف بحدود الإقليم والمكان، ولا حد النشأة والميلاد، فكانت الثقافة هى البوتقة الجامعة بين العرب وكبار مثقفى الأمم المشاركة فى بنية منظومة حضارتهم على غرار ابن سينا والرازى والإدريسى وابن الهيثم وابن النفيس وابن حيان وابن رشد والكندى والفارابى وابن خلدون وحازم القرطاجنى وغيرهم من أساطين الفكر الكبار، الذين صنعوا المشترك إنتاجًا وإبداعًا، ثم قاموا على بنشره وتوزيعه تأثُّرًا وتأثيرًا فى ظل منظومة حركة الترجمة، وتدوين علوم الأوائل، وقد تجاوروا فى دار الحكمة منذ أنشأها الرشيد، ونماها من بعده المأمون فالتقى العربى والهندى والفارسى واليونانى والسريانى فى سياق المشترك الإنسانى فى أدق صوره.

إذا كان المشترك يمثل المسعى الحقيقى لتبادل الوعى الإنسانى وتجارب الشعوب والأمم فهو المنطلق الذى دفع عالمًا مثل الجاحظ -مثلا- إلى البحث فى درجة التميُّز بالفصاحة لدى العرب، والسياسة لدى الفرس، والحكمة لدى الهنود، فكان لقاؤهم مدخلا إلى صناعة التواصل وتكامل الخبرات فى سياق المشترك العقلى والوجداني، قبل أى تصور آخر للتصادم أو الصراع، أو محاولات القهر والظلم والاستبداد، فالأصل فى الأشياء هو ذلك الواقع الإنسانى الذى لا يعرف ضفافًا إلا من خلال تلك الشراكة الفاعلة بين قدرات البشر، وما يصدر عنهم من فكر وعلم وثقافة وإبداع، وحتى الحلم المستقبلى يدخل فى هذه الدائرة الواسعة وعمق وذلك السياق الإنساني، فهل آن لنا أن ندرسه بوعي، وأن نمتلك من الآليات والجهد ما يقدم فيه الجديد المتناغم مع متطلبى الفترة وإيقاع المرحلة!.

٥

حضور الثوابت فى سياق المتغير

ليس موضعًا للجدل ولا للشك أن نعترف بتدفُّع رياح التغيير على مستوى العالم كله فى منعطفات الفكر والمعرفة، والثورات العلمية، إلى جانب الأبعاد الاجتماعية، والسلوكية، والأخلاقية، والقيمية، والتربوية، والإنسانية، والمنهجية بوجه عام.

ولكن موضع الجدل أن تظل الأمم راسخة وقوية حين تستوعب عواصف التحوُّل بهدوء وروَّية وتأنٍ؛ حتى لا تضحى بتاريخها، ولا تفقد كياناتها، ولاتنقص من الثقة بفكرها وقدراتها، ولا تنتهى إلى السقوط تحت أى من ضغوط التهميش، أو مقاصد التسطيح، أو محاولات فقد الهوية، أو الرضا بالتبعية والاستسلام، أو بالتنازل والانكماش، أو ادعاء القناعة أو حتى الاستعلاء، أو تصور إمكانية الانعزال عن الآخر، أو التوقف عن مواكبة إيقاع المرحلة ومسايرة متطلب الفترة.

هناك تبدأ الأمة فى التعرُّف على حقيقة الخُطى، بعيدًا عن ضبابية الرؤية، أو غموض الطريق، أو الاكتفاء بالانبهار أو الدهشة أمام تحولات المشهد الحضاري؛ الأمر الذى يرتهن ـ فى الحقيقة ـ بدوافع التغيير ومنطلقاته الحقيقية قبل أى اعتبار آخر، مما يمكن أن نقرأه من خلال عدة دوافع واعتبارات :

الدافع الأول : يأتى من عمق الدوافع الذاتية الداخلية الأصيلة لصناعة المتغير، دون قهر أو استبداد، أو تبعية، أو ضغوط من قبل الآخر؛ وهنا تنطلق الشعوب والحكومات قاصدة تحقيق الإنجاز العصري، تحت مظلة التحديث والتطوير الفعلى باعتباره ضرورة وطنية وقومية، مع تجاوز النمطية والجمود، والعبور إلى جسر

التقدم فى اللحاق بعصر المعرفة وإنتاج العلم، ومتابعة ثوراته المتلاحقة، وتجاوز حدود الانكفاء على الذات، أو الاكتفاء بدور المتفرج حين يستورد ويستهلك فحسب.

والدافع الثانى : يطرحه وضوح الرؤية المجتمعية حين ترقى من خلال الوعى العام مع استشعار جوهر الانتماء، والاندفاع من الحرص الأساسى على الصالح العام، أو تجاهل الانقسام على الذات، أو الوقوع فى أى من دوائر الانفصام بين القول والإنجاز، بين النظام والفوضى، ومن ثم تقرير قيمة الخيوط الرفيعة الفاصلة بين دقائق الأشياء.

والدافع الثالث : تحكمه جدية الرغبة فى التغيير، سعيًا إلى الخروج من شرنقة السالب إلى ساحات الموجب، مع ترجمة النظرى إلى حيز التطبيق، وتحويل المتوقع إلى واقع، والطموح إلى نمط متجدد أساسه حسن النوايا، وسلامة المقاصد، ومعياره المرونة والفهم، واحترام الآخر، وتعزيز مستويات الحوار وتعددية أطرافه، وتعظيم الوعى المعرفى الدافع إلى توليد القدرة على خلق التنافسية، ومواجهة التحدى بمعيارية الإجادة، وتقدير المساءلة والمراجعة مع احترام نقد الذات، وتعدد قراءة الواقع من خلال إدراك حقائق ما قبل الانطلاق إلى آفاق المستقبل، إلا عن وعى حقيقى بآليات الاقتراب منه.

والدافع الرابع : يظل مرهونًا بحضور بالثوابت واستقرارها بدءًا من احترامها، دون جناية أو رفض، أو استهانة، أو تحقير، أو استخفاف، أو تسفيه، بل تقدير منزلتها جزءًا من أصالة الأمة وعلاقتها بأعرافها وقيمها وأصولها التى تنتهى ـ بالضرورة ـ إلى احترام المقدسات، مع تقدير التواصل والاستمرارية، والاعتراف بتجدد التاريخ، واحترام الرواد والشوامخ وتقدير المبادرات الجادة، تلك التى تظل داعية إلى القوة والتماسك بعيدًا عن التشرذم أو الانشطار، وبمنأى عن فكر الجزر المتباعدة، أو القسمة العشوائية، أو حتى المنظمة التى ربما تستهدف أمة، فتنال من وحدتها لأى من الأسباب.

والدافع الخامس : تعكسه القدرة على اصطناع مزاوجة هادئة وعملية بين ما يبدو متناقضًا فى ظاهره، أصيلًا فى جوهره، وهو التلاقى ذاته بين الذاتى والجمعي، بين الموروث والمعاصر، بين الثابت والمتغير، بين القول والعمل، بين المعلن والخفي، بين المرسل والمتلقي، بين المبدع والعالم، بين كل ما يتراءى أمامنا ـ من حيث الظاهر ـ متباعدًا، والحق أنه يحتاج إلى إعادة آليات الصقل المعرفى والضبط المنهجى القائم على الاستقراء والاستقصاء، مع تأكيد الإيمان بالبحث العلمى مدخلًا حتميًّا إلى معايشة الفترة، بمنأى عن ظواهر التخلف ومساحاته التى لابد من إدارة ظهورنا لها.

وبذا تظل الحقيقة المؤكدة أن الثوابت تظل قوية فى منعطف التغيير، إذا ما قويت تلك الدوافع التى تبدأ من أصالة الانتماء، لتنتهى إليه بكل قوة وبكل ما تعكسه من الثقة والتمكن، وسلامة التوجهات. وهذا يكفى لتحقيق كل الاعتبارات القومية المرتبطة بأصالة الشعوب دون افتئات على تاريخها، أو مزايدات على واقعها، أو استخفاف بقدرتها، أو امتهان لشأنها وكياناتها تحت أى من الظروف التى ربما تعوق مسيرة التقدم ـ مؤقتًا ـ ولكنها لا تعنى ـ بحال ـ تعطيل سياق المتغير.

٦

حريـة الإنسـان فى الثقافة العربية

لا يخفى على الباحث الموضوعى ما تمتع به أقطاب الثقافة العربية من حرية الفكر منذ فتح الإسلام أمامهم باب الاجتهاد، فمنح لمن أصاب منهم أجرَين؛ الأول لاجتهاده والثانى لنجاح اجتهاده، وأعطى للمخطئ أجرًا واحدًا جراء اجتهاده، بصرف النظر عن نتائج خطئه.

الحكمة هنا رفيعة المستوى، ومؤشر الدلالة من مؤشرات الحرية الحقيقية الدافعة إلى إعمال وانفتاح الفكر، انطلاقًا من الإيمان بالمشترك الإنسانى الذى زكَّته الثقافة العربية بما تميزت به من الرحابة والموسوعية، مع المرونة والقابلية للأخذ والعطاء تأثرًا وتأثيرًا، وعيًا بما تقدمه للآخر، أو تأخذه منه بعيدًا عن التصادمية والصراع، وصدورًا عن الحوار والتثاقف، فبدت ثقافة إنسانية بكل المعايير.

وانطلاقًا من حرية الإنسان فى اختيار معتقده ودينه، امتد المفهوم إلى طبائع منظومة القيم الأخلاقية والإنسانية التى يصدر عنها تحت شعار (لا ضرر ولا ضرار)، وتحقيقا لمبادئ التكافل والتكامل بما يحتاج تبادل الاحترام بين كل الديانات من خلال أصحابها، وكذا يأتى احترام الانتماءات دون الافتئات على أى من حقوق الإنسان، أو التقصير فى مساءلة التجارب الناجحة والفاشلة على السواء.

ومع انطلاقة هذه الحرية ووجوب قراءتها وتحليل مصادرها وأبعادها وحقائقها، يظل الباب مفتوحا للمشاركة فى إعادة المفهوم القومى لهذه الأمة التى حققت للبشرية أفضل إنجاز حضاري، أزاح ظلام العصور الوسطى حين نقلت العلم

والمعرفة إلى الآخر عبر جسور الترجمة ومعابر الثقافة من شرق على غرب، ويظل المطلب مشروعًا فى إمكانة تبنى مشروع المشترك العربى متعدد الفروع والأبعاد، بين لغة وفكر وأداب وتاريخ ومصير.

قراءة الواقع تدعو إلى البحث عن جوهر الحق العربى فى التعريف بصور الظلم والطغيان الذى أصابت من أرضه ووطنه ما أصابت مما ما يستحق المراجعة والتأمل؛ لاسيما إذا بدت القضية واضحة حول حقوق الإنسان فى الدفاع عن نفسه وعرضه وأرضه ووطنه، وحقه فى مواجهة التحديات ومتابعة إيقاع المرحلة، والاستجابة لمتطلب الفترة بما يمتلكه من آليات وأدوات وفكر.

لم تعد العزلة عن الآخر عملا مقبولًا ولا مطلوبًا، ولم يعد منطق الصياح أو الشكوى كافيًا لنيل الحقوق فى ظل تداعيات الظلم العصري، وتوالى الهزائم النفسية للمستضعفين فى الأرض، ممن ينتظرون الإنصاف إذا صدقت نوايا الإصلاح فى بناء رؤية قومية قوية تحت مظلة قانون عادل، أو مظلة تحترم فى الإنسان إنسانيته!

من منطلق حرية الفكر يبدأ التغيير الحقيقى فى منطلقات العمل الثقافى العربى حيث يمكن للأجيال أن تجتهد فى صناعة مزاوجات هادئة بين الموروث والمستحدث دون انشطار ذاتى أو انقسام على النفس، وفى إطار التفاعل مع المتغير العالمى حيث تتسع دوائر الثقافة العربية بعيدا عن الجمود أو التخبط، وبمنأى عن الاستسلام لهيمنة المشهد الإنسانى الدافع أحيانا إلى الخمول وصناعة التبلد، أوسقوط الجريمة بالتقادم؛ حتى لا تتحول جراح الأمة إلى جراح مزمنة يصعب علاجها، أو الخروج من محنتها.

من منطلق حرية الفكر يجب أن يصدع الرأى العربى بوجوب التفاعل الثقافى من منطلق الندية والتكافؤ، بعيدا عن الاستعلاء أو الاحتقار، وبمنأى عن التباهى بماضى الأنا، أو التماهى فى الآخر دهشةً أوانبهارًا، ففى كلا الأمرين ما يدعو إلى

التقاعس والتكاسل، وما يوقف فاعلية الإنجاز المبنى على حرية الإنسان فى صورتها الحقيقية.

لم يعد تسطيح مشكلاتنا المجتمعية أو الثقافية أو القومية أمرًا مقبولًا، فربما ينتهى إلى الانهزامية وإماتة القضايا، أوتمييع المواقف، بما لا يتماشى مع تاريخ أمة علَّمت الإنسان فى أنحاء الأرض كيف يكون إنسانا، باحترام حقوقه وواجباته ومواثيقه وفكره وإبداعه.

فهل آن لنا إعادة قراءة تداعيات حرية الإنسان فى منظومة فكرنا العربى انطلاقا من اجتهادات أساطين العلم العربي، الذى أجاد التكلم بالعربية على مدار ثمانية قرون من عمر الزمان، فبات واجبًا أن نفىَ له بحق الانتماء والمراجعة والتواصل بما يضمن صحة المسار وجدية التوجهات، ومصداقية الأداء؟!



العرب ونهضة الحضارة الأوربية

(حوار أم صراع)

بدأ عصر النهضة فى أوربا مع تقدم الصناعة، وظهور الآلة، ومعها ظهرت الطبقة الوسطى (البرجوازية)، التى احترمت فى الإنسان فرديته وطاقاته وقدراته، بدءا من تحريك عجلة الإنتاج، إلى حريته فى السوق إلى حريته فى ساحات الفكر والإبداع.

هذه النهضة توازى ما شهدته الثقافة العربية فى عصور ازدهارها منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادي) وعلى مدى ثمانية قرون من عمر الزمان، حتى لنستطيع القول - بلا مزايدة ولا تعصب ولا مغالطة تاريخية - أن عصر النهضة لدينا كانت له أصول ومقومات، يمكن طرحها من خلال عدة اعتبارات وحقائق :

أولًا: منذ أنشأ هارون الرشيد الخليفة العباسى المرموق دار الحكمة، والتى نهض ابنه المأمون على توسيعها وتعظيم دورها فى الثقافة العربية وغير العربية، أسَّس فيها الرشيد قَلَمًا للترجمة إلى جانب علوم الأوائل من دينية وبلاغية ولغوية ونقدية وتاريخية، فتحولت إلى حضارة إنسانية واسعة ورحبة، لا تعرف الحواجز ولا تعترف بالحدود، ولاتتعصب لدين أو عنصر أو جنس، بل فتحت نوافذها على كل حضارات العالم القديم ولغاته، منذ ترجمت من وإلى الهندية والفارسية واليونانية والسريانية، ومنذ اعترفت بالآخر بدليل ما نقلته إليه، أو نقلته منه بمعيارية التسامح، والانفتاح، المطلق بلا حدود.

ثانيًا: أنها بدت حضارة وثقافة حوارية من الطراز الأول، لم تقم على التصادم، ولا الصراع؛ دليل ذلك أنها عرفت امتدادًا واسعًا من غرب الدنيا فى إسبانيا القديمة (الأندلس) إلى أسوار الصين شرقًا، مع وصول قوافل التجارة والتبادل الاقتصادي، فكانت صانعة حوار متعدد الأركان، يدعو إلى التكامل والتلاقي. ويتجاوز الانقطاع أو الانفصام أو العزلة، ودليل صدق حوارها أنها لم تفرق بين المسلم والمسيحى واليهودي، بقدر ما أخذت من علم كل هؤلاء بصرف النظر عن المعتقد والدين؛ فالإسلام يحترم كل الأديان، ويترك للبشر حرية العقيدة، ولا يفرق بين الأجناس، فكل البشر عند الله سواء تحت راية الروابط الروحية وحسن الخلق وطبيعة المعاملة، واحترام الثوابت والمقدسات، وتقدير علاقة الإنسان بربه باعتبارها علاقة خاصة، مع الاعتراف بتعددية الصيغ الاجتماعية فى علاقات البشر بعيدًا عن القهر والإذلال والاستعباد، ورفضًا لاحتلال للأرض، أو العدوان على الآخر، أو المساس بدمه أو عرضه أو شرفه أو وطنه، فالكل فى حق الحياة سواء فى ظل سماحة العقيدة ورحابة الدين.

ثالثًا: أنها ثقافة موسوعية؛ انطلقت بين ساحات الفكر والإبداع معًا، حيث يخطئ من يظن أن ثقافتنا العربية وقفت عند حدود الشعر والإبداع؛ نعم كانت كذلك فى العصور الأولى قبل التدوين عبر المرحلة الشفاهية، وقبل حالة الاندماج والتفاعل الحضارى التى بدأت مع عصر الكتابة المنهجية والتدوين المنظم، وظهور المكتبات وتبادل المؤلفات، والاندفاع إلى الجمع والتصنيف والشرح والتحليل والتعليق، حيث دخلت مرحلة مهمة فى ضمان تواصلها عبر الأجيال فكانت ثقافة فاعلة قادرة على الاستمرارية والبقاء من جانب، والاندماج الفاعل فى فكر الآخر من جانب ثان.

وفى مرحلة التدوين، تحولت إلى ثقافة علمية تنهض على التعددية وتقوم على المنهج التجريبى والاستقرائي؛ على النحو الذى سجلته ريادة ابن سينا – مثلًا – فى

الطب والقانون والإبداع الشعرى والفلسفى والتاريخ، فنستطيع أن نقرأ فيه موسوعية الطبيب الفيلسوف الشاعر المبدع الناقد والمؤرخ. وهو ما أوجزه الجاحظ ـ مثلًا ـ فى حواره حول طبيعة المثقف العربى، الذى يجمع من كل علم بطرف دون انخراط فى تخصص دقيق قد يعزله عن بقية المعارف والعلوم، بقدر ما يحيط به منها، وما يستوعبه من مقوماتها.

وكانت موسوعية عالم مثل ابن سينا وأديب من نوعية الجاحظ نماذج عليا تحققت لها نظائر لدى كثير من الأعلام فى الرياضة والطب والفلك والهندسة والكيمياء والفلسفة، على غرار ما نعرفه من أسماء أبى موسى الخوارزمى فى الرياضة، أبى بكر الرازى فى الطب، الحسن بن الهيثم فى طب العيون، ابن النفيس فى الدورة الدموية، جابر بن حيان فى الكيمياء، والفارابى والكندى وابن رشد وغيرهم من أقطاب الفكر الفلسفي، إلى جانب ارتقاء حركة العلم وتزايد أصحاب النظريات والتجارب العلمية الرائدة.

رابعًا: أنها ثقافة المنهج والوعى والإدراك والبحث فى جوهر الأشياء وحقائقها، فقد تحولت من مجرد معارف وأفكار، ومن تجارب أساسها التكرار بين الصواب والخطأ إلى ثقافة علمية جادة يحكمها المنهج من خلال السعى إلى الإضافة والتجديد والابتكار؛ عبر حركة الترجمة التى فتحت آفاق الذاكرة العربية على ما يدور فى ذهن الآخر، وما تطرحه ذاكرته واجتهاداته، فأدركت ما وراء المشترك الثقافى من علاقات وأبعاد، فأصبحت ثقافة علمية تحترم ذلك الآخر، وتقدر دور الاجتهاد، وتعظم الإضافة والمشاركة فى كل ما تأخذه من قبيل التحديث والتجديد، فبدت - بهذا المعيار - ثقافة التعددية والوحدة معًا، وحدتها إنسانية، وتعدديتها تقدر الفروق بين الأفراد، وكذلك الفروق بين الأمم على نهج الجاحظ منذ سجل للعرب نبوغهم وتفوقهم على أمم الأرض فى الفصاحة والبيان.

كما سجل لليونان تفوقهم فى المنطق والفلسفة، وللفرس تميزهم فى السياسة وفن

الحرب وأساليب القتال، وللهنود نبوغهم فى الرياضة والفلك والحكمة؛ الأمر الذى يدعو إلى تأمل هذا التكامل الإنسانى الرائع فى قراءة الأشياء دون قطيعة أو انفصام من خلال تقدير أهمية المشترك الإنسانى فى صناعة التكامل المعرفى والتلاقى العلمى الذى لعبت فيه الترجمة دورًا بارزًا، ولعبت فيه أيضا المعابر الثقافية الكبرى أخطر الأدوار، على نحو ما كان من دور صقلية كمعبر ثقافى عربى إلى الأندلس، وهو ما تجلى فى خريطة الآداب العربية والغربية، التى لمع فيها تأثر دانتى الايطالى فى الكوميديا الالهية - مثلًا - برسالة الغفران للمعري، أو رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلس؛ مما يؤكد فكرة الأخذ والعطاء؛ وأهمية التأثر والتأثير دون انغلاق أو تعصب أو انطواء على الذات على الإطلاق.

خامسًا: تعددية الحركة العقلية لدى العرب أنفسهم منذ لعبوا دور الفاتحين، ومع هذا تجلى منهم الحرص على الإفادة من ثقافات الشعوب المفتوحة وحضاراتها، فأنشأوا مدارس التعريب التى سعى إليها القوم يتعلمون العربية ويُعلمون بها، ولاأدل على ذلك من إسهاماتهم الرائعة فى تنمية الثقافة العربية ونضوجها من خلال ممارسات أصيلة يحكى الجاحظ - مثلًا - بعض جوانبها فيما يراه من فصاحة أبى موسى الأسوارى بالفارسية والعربية من مجلسه بين القوم مفسرًا لآيات القرآن الكريم حيث يفسر الآية بالعربية للعرب عن يمينه، ثم للفرس بالفارسية عن يساره فلا يُدرى بأى اللسانين هو أبْيَن.

وهو القياس الذى تعكسه مشاركات غير العرب فى بنية الثقافة العربية بعمق، وإلا فأين نضع - مثلًا - جهود البخارى فى صحيح الحديث النبوى الشريف، وأين نضع الجهود الرائعة لعبد القاهر الجرجانى فى دراسة أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز؛ حتى ما كان من سيبويه نفسه حين ألَّف الكتاب فى النحو العربي، إضافة إلى دور أولئك العلماء الكبار فى صيغ الدفاع عن العروبة ضد تيار الشعوبية الذى علا صوته لدى بعض الفرس من الشعراء والكتاب على طريقة بشار وأبى نواس والهيثم بن عدى وغيرهم، فإذا بالجاحظ يتصدى لهم، وكذلك ابن قتيبة وغيره ممن

أعادوا إلى الثقافة العربية اعتبارها من باب الاعتراف بفضلها فى تكوينهم، وتأسيس أصول فكرهم وعلومهم ومناهجهم.

سادسًا: أنها ثقافة المدارس العلمية الكبرى، وكذلك كانت فى مهدها منذ تأسست مدرسة الصنعة الجاهلية (عبيد الشعر) إلى مدرسة البديع العباسية لدى مسلم بن الوليد، ثم أبى تمام ثم ابن المعتز، إلى مدرسة روميات الشعراء من مسلم بن الوليد إلى البحترى وأبى تمام وابن الرومى إلى المتنبى وأبى نواس والشريف الرضى وغيرهم من كبار شعراء الأعصر العباسية. وهى المدارس العلمية ذاتها التى أسس لها – مثلًا – ابن حيان فى تقدم علم الكيمياء على يديه عبر النظريات والتجارب والنتائج، وما كان من كتابة أكثر من مائة رسالة ترجمت إلى اللاتينية، ومثل كذلك كان كتاب الحيوان لأرسطو والذى ألف على أساس منه " الجاحظ" كتابه الحيوان أيضا. فلم يكن دور ابن حيان أقل منزلة فى صناعة المدرسة الكيميائية عن دور أرسطو فى المنطق، ولم تكن رؤيته للمنهج العلمى بمعزل عن تأثير أستاذيته فى أفكار جاليليو وفرانسيس بيكون ونيوتن وغيرهم.

كانت جهود طب جالينوس مؤثرة بالتأكيد فى طب يوحنا ابن ماسويه فى علم التشريح، فى مقابل ما تركه الرازى من كتب ترجمت إلى اللاتينية منها كتاب الحاوى والمنصورى وكتاب الجدرى والحصبة وغيرها.

وكذا كان ما تردد حول الجاذبية عند ثابت بن قرة وموسى بن شاكر وغيرهما، ومثله كانت تجارب البيرونى فى الحيل وعلم السوائل فى مقابل ما نقله العرب عن أرسطو فى الفيزياء وكتاب الحيل الروحانية وغيره.

سابعًا: أن الثقافة العربية بهذه المعيارية تحولت إلى حلقة وصل ضامنة للتواصل الإنسانى المعرفى بين شرق وغرب، بدليل ما قدمته للبشرية من عطاءات ينبغى أن تسجل لها منذ ترجم العرب كتابى أرسطو فى الخطابة والشعر، وبنوا عليها كثيرًا من الأفكار والتعليقات والآراء، إلى ما نقلوه من أدب ابن المقفع وفكره، إلى ما طوره المعلم الثانى "الفارابي" عن الفكر الأرسطى والأفلاطونى..

النماذج كثيرة ودالة على أصالة المشترك الثقافى بين العرب وبقية الأمم التى نقلوا عنها، وطوروا، وأضافوا، فاحتفظوا بتلك العلوم وجددوا فيها حتى تم نقلها عنهم عبر عصور الظلام إلى الغرب الأوربي، الذى لعب دورًا رائعا فى تحديثها وتجديدها والإضافة إليها، لاسيما حين وقعت الأمة ضحية حملات استعمارية شرسة صرفتها عن التقدم العلمي، وعن الاستمرار فى البحث عن المعرفة والتنمية البشرية، إلى محاولة الدفاع عن الأرض وطرد المستعمر الأجنبى منها، لاسيما أن بعض موجات الاستعمار آثرت نهب الكتب والمخطوطات، ونقلتها إلى مكتبات الغرب، إلى جانب صور أخرى من الفوضى الاستعمارية التى أحرقت كثيرًا من الكتب، واتخذتها معابر للخيول عبر نهرى دجلة والفرات. ومع هذا ظلت الثقافة العربية متماسكة وقوية، وبنى عليها الآخر جسور التطوير والتحديث إلى أن قامت حركات التحرر العربية، وبدأت تتنفس الصعداء مرة أخرى لتستعيد تراثها ومخطوطاتها من مكتبات الغرب، وتقيم عليها دراسات عصرية تتسق وإيقاع اللحظة، وطبيعة المرحلة على المستوى الفكرى والمنهجي.

وبعد، فهذه مجرد لمحات وفصول من مداخل ثقافتنا العربية، وبيان لبعض دورها فى عطاءات عصر النهضة الأوربية، إلى جانب ما تمتعت به من ازدواجية احترام الموروث والقدرة على استقطاب الجديد، مع تجدد العطاء والاستعداد للمشاركة والمتابعة والمراجعة، مما جعلها ثقافة حوارية من الطراز الأول .. أما عن واقع الثقافة العربية، فإنه يحتاج صحوة أخرى جديدة، تعيد إلينا تراثنا لنتحاور معه تجديدًا وابتكارًا وإضافة، ونهتم بمخطوطاتنا العربية، لا للإبقاء على الماضى أو التفاخر به، ولكن من أجل تسجيله ودراسته واتخاذه مدخلًا إلى إعادة قراءة الواقع والاندفاع إلى المستقبل، مع تعظيم المادة القرائية التراثية من نفس المنظور، وتعميق الدراسات المهتمة بمشكلات الثقافة العربية والغربية، وصولا إلى الأمل المتوقع فى إنتاج العلم وتوطين المعرفة تجاوزًا لمرحلة الاستهلاك والاستيراد التى لابد من تجاوزها فى ظل مواجهة التحديات المعاصرة بكل أبعادها وملامحها.



ثقافتنا فى عالم متغير

من المؤكد أننا نستشعر – بصدق – خطر التيارات الفكرية المتدافعة من حولنا فى كل اتجاه، بما تحمله من دلالات ومؤشرات، وما تحكيه من فصول التحديات؛ الأمر الذى يستوجب منا الصحوة، ويتطلب اليقظة دون تردد أو تراجع أو تكاسل.

وتنطلق البداية من الاعتراف بوجود المتغير فى صورته العصرية، بما تعكسه المشاهد من سرعة الإيقاع، حيث انتهت عصور السلحفاة، وبدأت مراحل الثورات العلمية تتوالى وتتلاحق بغير انقطاع وبدأت طرائق المعرفة تتجدد، وتراكماتها تتزايد وتتوالد، وبدأت لحظة الحساب بقدر الملكات والقدرات والمهارات، وبقدر ما يمتلكه الفرد من استعداد للانخراط فى معسكر المجتهدين فى مقاومة تيارات الانهزامية والانكسار من جانب، والخلاص من تيارات الفساد والإفساد من جانب آخر.

وبدا المسكوت عنه فى الظهور والتجلى من خلال القراءة الشفافة للواقع ونقد الذات، وظهر أخطر ما فى عيوبنا فى تحقيق الرسالة الثقافية فى صورتها الجادة، لاسيما إذا ازدحمت المرحلة – وهى مزدحمة بالفعل – بتدفُّقات سموم السماوات المفتوحة عبر الفضائيات، فأصبح المرسل إليه ضحية لما يتلقاه، وبات عاجزًا حتى عن مجرد الخروج من عباءة ما يُملى عليها منها، إلا فى حالة واحدة إذا وجد من الحصانة والتعقيم من خلال الانفتاح على ثقافته القومية اعترافًا بها، وتعرُّفًا عليها، وفهمًا لها، ووعيًا بتحولاتها ومنطلقاتها.

والحقيقة أن ثقافتنا العربية قد تميزت فى عصر ازدهارها الوسيط بأعلى درجات الإنسانية، حيث صدرت عن منظومة قيم ومثل عليا، تحترم فى الإنسان إنسانيته، وتعترف بقيمة المشترك الثقافي، وتنطلق إلى التأصيل لكل حقوق الإنسان بصرف النظر عن انتمائه العنصري، أو المذهبي، أو العقدي، أو السياسي، فبدت ثقافة مفتوحة على الآخر، احترامًا واستيعابًا، بعيدًا عن النرجسية والاستعلاء من جانب؛ وبمنأى عن الاستسلام والتراجع والتبعية من جانب ثان، وبعيدًا أيضًا عن الانبهار والدهشة من جانب ثالث.

ومع إنسانيتها بدت ثقافتنا موسوعية، تحترم مقومات التخصص العلمي، وتنطلق عبر آفاقه إلى رحاب الأعماق البينية، التى تأخذ من كل العلوم باعتبار الوحدة والتنوع معًا؛ وحدة المصدر من الفكر والوجدان البشري، وتنوع العطاء عبر كل العلوم وساحات الإبداع.

فهل آن لثقافتنا العربية - بكل هذه المقومات - أن تستعيد من ماضيها ما يضمن لها البقاء والتحديث أمام زحام موجات المتغير العالمى الهادف إلى تهميش القوميات، أو التهريج الرخيص على حساب أصالة الحضارات وكيانات الأمم والشعوب؟

وهل آن لها أن تأخذ من موجة المتغيِّر أفضل ما فيه من صيغ المعاصرة، مع المحافظة على ثوابتها ومقدساتها، التى تظل جزءًا لا يتجزأ – بحال – من كيانها وشخصيتها؟.

كل هذا ممكن إذا استيقظ أبناؤها فتنبهوا إلى وجوب الإصلاح والتغيير من الداخل، باعتباره جزءًا من طبيعة الأشياء؛ دون انتظار لأى طرح خارجي، أو الوقوع فى تبعية مفروضة تحت أى من المسميات.

من هنا يتجدد الخطاب الثقافى حين ينطلق من استشعار المسئولية القومية، وتعزيز منطق الانتماء، دون فقد صيغ الواصل، وآليات الاندماج مع الآخر؛ لاسيما إذا كان لثقافتنا مالها من فضل فى إكساب ذلك الآخر كل مقومات الفكر فى ظل

احترام منظومة القيم العليا التى صاغتها، وانطلقت منها بين مشرق الأرض ومغربها.

كل هذا ممكن بشروطنا إذا أحسنَّا فهم أنفسنا، وتوجهنا إلى نقد ذواتنا دون ادعاء جلدها، وهو الممكن إذا ما خلصت النوايا، وصدقت التوجُّهات فى خلق بنية ثقافية قوية تعرف موقعها الحقيقى على خريطة العالم، كما عرفتها فى عصور تقدمها وازدهارها قبل تحول عجلة التاريخ فى سياق الحملات الاستعمارية الشرسة، التى قضت عليها حركات التحرر الوطنى فاستطاعت أن تنقذ من تراثها وفكرها ولغتها وثقافتها أفضل ما فيها، وبات مطلوبًا منها أن تستكمل المسيرة بالقوة نفسها فى استيعاب تيارات التحديث والمعاصرة؛ حتى تظل محتفظة بموقعها المتميز على خريطة العالم المعاصر.

ثانيًا : متغيــرات

١- ثقافتنا العربية فى مفترق الطرق

٢- مسئولية البناء فى المشروع الثقافى العربى

٣- توجهات فى مؤسسات الثقافة العربية

٤- العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة

٥- ثقافة التغيير ومداخل الإصلاح

٦- بين العروبية والأفريقية حوار لا ينقطع

٧- أسئلة حائرة.. ومازالت الإجابات مفتوحة!

١

ثقافتنا العربية فى مفترق الطـرق

فى مؤتمر أقل ما يوصف به أنه تاريخى واقعى ينطلق من الحيدة والموضوعية انطلاقه من الجدية والتعددية، ومع القراءة الأمنية للواقع العربي، بعيدًا عن التهويل والمبالغة، أو الغفلة والتهوين كانت حوارات مؤتمر العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة بمراكش من خلال مؤسسة الفكر العربي؛ حيث التقى المفكرون من كل الاتجاهات العربية، والأجنبية، الوطنية، والقومية، الدينية والإعلامية لتقول كلمتها فى أخطر فترات التحول التاريخى للأمة، قصدًا إلى الإفادة من كل الاجتهادات فى تحليل واقع الأمة، وتأمل ما يحيط بها من متغيرات، وما يحتمل أن تنهض به فى سبيل النهوض من كبوتها العارضة.

التقى المثقفون حول تشخيص نقائص الواقع العربى وكشف تناقضاته، محاولين البحث عن حلول جذرية لمشكلاته، تبدأ من الاعتراف بالأخطاء ونقد الذات، وتنتهى عند نُبل المقاصد وسلامة النوايا الدافعة إلى تواصل البحث عن الحلول بعيدا عن الانهزامية أوالاستكانة، وبمنأى عن السلبية أو الانقسام على الذات، واندفاعًا إلى إعادة بناء الثقة فى ثقافتنا العربية، مع احترام جسور الفكر والوعى فى علاقتها بالآخر أخذًا وعطاء، تأثرًا بما اكتسبته من قيم الإنسانية والعمق والرحابة والموسوعية على مدار حقب التاريخ، وتصحيحًا لمنهج الفكر فى معالجة القضايا الفكرية المعاصرة دون جناية على الثقافة القومية.

اتسم المؤتمر بجدية الملاحظات، مع جدية البحث عن الحلول، حيث تم طرح

عديد من المشروعات البناءة، بما لها من بُعد مجتمعي، وآخر قومي، وثالث تراثي، ورابع مستقبلي، وخامس حول دراسة المشترك الإنساني؛ وجميعها تضع الثقافة العربية موضع المساءلة الجادة، والمراجعة الدقيقة، كما تضعها فى موقع التحدى من خلال وجوب تجديد الخطاب التربوى لأبنائها فى سياق وجوب الاندفاع إلى التنافسية والتحديث، ثم ضرورة الانخراط فى خضم مشكلات المرحلة، بما تتطلبه منهم من التفوق والابتكار، والتميُّز، مع التحول الجاد والمرحلى إلى إنتاج المعرفة والفكر، وإيقاف تيار التواكل والاستيراد والاستهلاك الذى أثقل كاهل شعوب الأمة، وجنى على مستوى الوعى القومى لدى أجيالها.

وضع المؤتمر التصورات والرؤى العلمية لطبيعة الخطاب الثقافى متعدد الأبعاد من خلال برنامج عمل، يتحول به إلى خطاب الفعل والإنجاز، بدلا من القول والزعم والشعار والتوقّع، كما تحول بالخطاب الفكرى عبر شعابه وأوديته المتنوعة بين التربوى والتعليمى إلى الشبابى والاعلامى والدينى والقيمي، إلى دراسة مرجعيات الفكر، ومستويات التغيير، مع احترام المقدسات والثوابت، إلى تأمل جوهر المشروع القومى الواعد؛ لإعادة قراءة التراث تحليلًا وتفسيرا ونقدا ومراجعة وحوارًا وجدلًا، إلى محاولة ترجمته للأجيال الجديدة تبسيطًا وتيسيرًا لا تسطيحًا ولا تهميشًا، ثم محاولة التوسع فى سياق حركة الترجمة ذاتها من العربية وإليها، لعلها تستعيد تاريخ تراثها الأصيل من لدن دار الحكمة وانفتاح العقلى العربى لدى الرشيد والمأمون.

اندفع حوار المؤتمر فى اتجاه موضوعى يعكس كثيرًا من صيغ التخوُّف فى ظل الأناة فى طرح صيغ المبادرة، مع الجسارة فى اقتراح الحلول، وبين التخوف والجسارة مساحات متباينة من التفكير الجمعى المحكوم- أحيانًا -بسلامة المقاصد وحسن النوايا وأخرى بغير ذلك؛ الأمر الذى يدفعنا دفعًا إلى طرح طموح أكبر فى نشر خلاصة حصاد المؤتمر عبر المؤسسات العلمية العربية والدولية من الجامعات والهيئات الثقافية، إلى تزوير مكاتبنا فى الخارج بكل تخصصاتها الثقافية والإعلامية، إلى وجوب مد جسور التعاون

والتلاقى والتنسيق بين عطاء المؤسسة الفنية، التى استطاعت خلال ثلاث سنوات من عطائها الجاد أن تضع الأصول، وتؤسس القواعد لبناء خطة قومية واعية وواعدة، معيارها احترام دوافع التغيير والإصلاح من الداخل، مع ضرورة شموليته للإيقاع المجتمعي، واحترام مرجعيات التغيير، ودعم الهاجس الوطنى نحو مناهج الحوار والتفكير، وتجديد صيغ الخطاب وتحديد المصطلح والمفاهيم، إلى احترام مكوِّنات الحياة العربية بين رصد واقعها وتسجيل طموحاتها ورؤاها، بعيدًا عن التبعية أو الانشطار على الذات، واتجاهًا إلى تحقيق التكامل المرتقب من خلال المقتدر العربى وتضافر جهوده مع المستضعف العربى والوفاء باحتياجاته؛ الأمر الذى يمكن أن يقود إلى طرح جديد يدفع الغرب إلى احترامنا؛ خاصة إذا تذكرنا من حين إلى آخر دور الحضارة العربية فى تطور الحضارة الأوربية فى عصر النهضة، لا من قبيل المباهاة ولا النرجسية أو الاستعلاء، بل من حيث القصد إلى تعميق الثقة فى الذات، وتجاوز الإيحاء بالقصور أوالعجز عن الإصلاح، وهو الإيحاء الداعى ذاته إلى الإفادة من تجارب الشعوب المتقدمة على طريقة اليابان والصين وغيرهما ممن انتصروا على صدمة الحداثة، فاستطاعوا تغيير الواقع، وتحقيق التقدم، دون انزعاج من منطق التغيير وصور التطوير والتحديث، مما تفترضه أعباء الفترة، وتطرحه متطلبات المرحلة من بناء ثقافة الشجاعة والشفافية مقابل ثقافة الخوف والالتواء والغموض، وبناء فلسفة التوازن بين الحقوق والواجبات، وتحليل طبائع مفاهيم المواطنة ورموز الانتماء، وتجاوز ثقافة التبجيل والتمجيد إلى احترام الذات والآخر بقياس التوازن والتكافؤ والندية.

إن الإفادة من جهود المؤتمر تمتد – حقيقة- إلى وجوب رسم خطط مستقبلية تشارك فى طرح الرؤية حول ظروف الأمة وأعبائها، ولعل من موضوعات المرحلة ـ أيضًا ـ قضية التراث العربى ومشكلة اللغة بما يستحقه الأمر من تنسيق الجهود بين هذه المؤسسة وبين بقية الهيئات الثقافية من المجالس القومية المتخصصة، إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والمجلس الأعلى للثقافة، إلى جمعية لسان العرب، وجمعية حماة العربية، إلى جهود رابطة الجامعات الإسلامية، وجمعية الدعوة

الإسلامية العالمية، وغيرها من الأقسام العلمية المتخصصة والكليات والمعاهد المعنية بقضايا الأمة والوطن واللغة والهوية والتكامل العربي.

وهكذا تتكامل جهود الجهات القادرة على الإصلاح بشكل لا يقبل التراجع ولا التردد من أمة كانت قوية، إذ طالما قهرت الاستعمار على مدار توالى حقب التاريخ، وما زال فيها الخير إلى يوم القيامة ما وُجد من أبنائها من يوظف أمواله فى خدمة قضايا الفكر والثقافة، فإذا به يحمل رسالة قومية خالصة لا ينتظر عليها جزاءً ولا شكورًا، إلا ما يبقى من حقه من وجوب امتداد العدوى عبر محاولات بقية المؤسسات فى أن تنهج نهجه حيث تتجانس الأفكار والرؤى.. لعلنا ننطلق من مشروع قومى كبير ينتصف للأمة، فيمنحها حقها التاريخى المشروع، ويسهم فى صناعة طوق النجاة على أيدى أبنائها الأوفياء، وعندئذ تحدد الثقافة العربية طريقها إلى الخروج من التيه إلى مسار النهضة.



مسئولية البناء فى المشروع الثقافى العربي

من المؤكد أن المسافة بين البناء والهدم تتباعد بقدر تباعد الفواصل بين الشمال والجنوب، واتساع المساحة بين التقدم والتخلف؛ الأمر الذى يتطلب نمطًا خاصًا من معالجة القضايا الفكرية بقدر من الشفافية والجسارة، وبمنأى عن المزايدة والمغالطة.

ولعل الشاهد على ذلك ما شهدته مدينة مراكش المغربية من اجتماع أقطاب الفكر والثقافة من المفكرين العرب والأجانب، لمناقشة قضية العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة، حيث تعددت الأصوات، وبرزت كل الاتجاهات دون حَجر على حرية، أو فكر، ودون إيقاف لأى من تياراته أيًا كانت درجة الصخب أو الضجيج، أو افتعال معارك فى غير معترك فى بعض الأحيان.

من هنا تحددت مستويات البناء وتجذرت أسسه فى شكل المؤتمر، وفى ومضامينه الكبرى، مما يمكن الإشارة إلى جوانب منه فى ظل مجموعة اعتبارات وخواطر، منها:

١- أن المؤتمر طرح بُعدًا تراثيا أصيلًا حول وجوب إحياء ثقافتنا وتراثنا العربى بشكل منهجى عصرى متوازن ومتجدد، بما يحفظ له دوره التاريخى فى بناء النهضة الأوربية، ولعله يسترد بذلك بعضًا من الدّين الذى منحه للآخر قبل عصور الاستعمار واحتلال الأرض.

٢- وجوب الاعتراف بحق الاعتزاز برموزنا الثقافية، التى شهدتها حقب

التاريخ، بدءًا من هارون الرشيد والمأمون، ودار الحكمة، وحركة الترجمة والتأليف، إلى التواصل التاريخى الذى أسس لمناهج التجديد والابتكار، دون توقف أو انحسار من لدن الغزالى فى فترة التأزُّم الفكرى التى انطلق فيها يصدع بإحياء علوم الدين، إلى علماء الاستنارة فى القرنين التاسع عشر والعشرين من أصوات أقطاب الفكر على طريقة الأفغانى ورشيد رضا ومحمد عبده وتلاميذهم الأوفياء.

استمر مشهد البناء قائمًا فى تجديد الفكر العربي، ودخلت المؤسسات المدينة والمجتمع المدنى بكل ثقله فى المعترك القومى والإنسانى دفاعًا عن حقه فى الاستمرارية، والمشاركة، أملًا فى بناء مشروع قومى يحقق الهاجس المستقبلى لفكر الأمة، ويضمن نجاح الرهان على تجديد دورها عبر ثقافة الفعل والإنجاز، وتعزيز دراسة المشترك الإنسانى مدخلا إلى الحوار دون صدام أو صراع.

كان تعزيز ثقافة الاعتراف، ورفض ثقافة الجحود مدخلًا جادًا لضمان الانفتاح والتواصل، انطلاقًا من تعدد القراءات بين ليبرالية وإسلامية وقومية ووطنية دون وقوع فى دائرة الفوضى الذهنية، ودون اقتصار على الثقافة النخبوية بقدر الانطلاق إلى تأسيس الثقافة المجتمعية الهادفة إلى إدراك مفاهيم الديمقراطية والتنمية والعدالة وتعزيز منظومة الجدل بين معطيات التجديد الحضارى وإحياء الموروث العربى بعيدا عن السيطرة والهيمنة، وبمنأى عن التباهى والاستعلاء من جانب، أو التماهى فى الآخر بين دهشة وانبهار من جانب ثان.

بدا الإفراز الثقافى جيدًا وشفافًا حيث خرج عن دائرة التوصيات والتصريحات إلى منطقة التأصيل للفكر الجمعى فى طرح المساءلة والبحث عن الإجابات، وفى دعم ظواهر التحليل والنقد وتجاوز الجمود والقصور والاسترخاء الفكري، فبدا التوجه صحيحًا وجادًّا فى تجاوز مسالة الجزر المتباعدة والمصطنعة فى الحياة العربية إلى إقامة جسور التعاون والتكامل، اتساقًا بما تشهده الساحة العالمية من تكتلات، آتت ثمارها الطيبة فى تحقيق التقدم لشعوبها؛ الأمر الذى يستدعى الإفادة من تجارب الآخر وتجاربنا معه على مدار حركة التاريخ ومتطلب المعاصرة على حد سواء.



توجهات فى مؤسسات الثقافة العربية

من الظواهر الطيبة ما يظهر – أحيانًا – فى تلاقى العلم مع المال فى وطننا العربي، شاخصًا – أحيانًا – فى تشجيع البحث العلمي، ودفع العلماء إلى التنافسية والإجادة، وهو مطلب عصرى مهم وضرورى فى سبيل تحقيق نهضة حقيقية للثقافة العربية.

ولكن الأهم والأخطر فى هذا السياق، أن نجد مؤسسة للفكر العربى تتبنى قراءة واقعه، ودراسة همومه ومشكلاته، وتناقش أبعاده وفلسفاته، وتحاول استجلاء حقائقه تاريخًا وحاضرًا ومستقبلًا، وتطرح الرؤى والمعالجات للبعد المستقبلى من خلال تعددية فكرية ملموسة بين كل المدارس والاتجاهات من وسطية ويمين ويسار، دون حجر على رأي، أو مؤاخذة على رؤية، أو تعطيل لاتجاه، أو تحيُّز لنمط، فبدت المؤسسة أشبه ما تكون بدار الحكمة، التى أسسها الرشيد فى بغداد (دار السلام) وطوَّرها ابنه المأمون فدفعت بالحضارة العربية إلى أرقى درجات التطور عبر تدوين علوم الأوائل جمعًا وتصنيفا، وتأليفا، وشرحا، وتحليلا، وإلى جوارها كان قلم الترجمة من العربية وإليها عبر اللغات الهندية واليونانية والفارسية والسريانية.

هذه الازدواجية التى تنم عن طبيعة ثقافتنا العربية من حيث احترام المشترك الثقافى بين شعوب الأرض، واحترام المشترك الإنسانى بين البشر إيمانا منها بتلاقى الوحدة والتنوع دون تناقضات، ومن ثم كان انتشارها بين المشرق والمغرب من

خلال التعرب الفكرى الذى تجاهل طبيعة الانتماءات العنصرية بين عربى وغيره تجاهله لأية انتماءات دينية أومذهبية؛ فكانت الثقافة رحبة واسعة الآفاق، فتحت النوافذ والأبواب دون حجر أو استعلاء، وقبلت التعددية دون احتكار أو احتقار؛ ومن ثم بدت – فى أبرز خصائصها- موسوعية عميقة متدفقة قادرة على تحقيق التواصل والبقاء، على الرغم من المحن التى حاولت النيل منها عبر حملات الاستعمار والاحتلال منذ جحافل التتار، إلى دعاة الصليبية ثم الاستعمار الغربى فى القرنين الماضيين.

يبدو إنجاز مؤسسة الفكر العربى دافعًا لاستدعاء كل هذه التداعيات حين يلتقى فى إطارها أكثر من مائتى عضو لحضور مؤتمر يناقش قضية العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة؛ حيث استشعرت المؤسسة خطر المرحلة فحرصت على تبنى قضية الفكر العربى الذى اتخذته شعارًا لها، لتطرح ما يمكن معالجته من قضايا الأمة ومشكلاتها، بدءًا من طرح السؤال البدهى لماذا ثقافة التغيير؟ وانتقالًا إلى مشاهد الإصلاح المتوقع سياسيًّا وتربويًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وتعليميًّا وإعلاميًّا وقيميًّا، من خلال جلسات وحوارات ومداخلات ومناقشات كان للوفد المصرى فيها أثر واضح من خلال حضور متميز للسيد عمرو موسى الأمين العام للجامعة العربية، والدكتور بطرس بطرس غالي، والدكتور أحمد كمال أبو المجد، والسيد أحمد ماهر، والسيد على ماهر، والسفير أشرف زعزع إلى جانب حضور مواكب العلماء والمفكرين من أمثال فهمى هويدى وحسن نافعة وأحمد أبو زيد وحسن وجيه والإعلاميين من أمثال سناء البيسى وجمال الشاعر.

كانت الحوارات مثمرة وبناءة؛ سواء منها أوراق العمل المقدمة، أو ما بُنى عليها من مناقشات تميَّزت بالشفافية والوضوح والاجتهاد، حيث التقى المصريون بأشقائهم من المغاربة والتوانسة والجزائريين والخليجيين والسعوديين والسوريين واللبنانيين والأردنيين واليمنيين، فتحول اللقاء الثقافى إلى عرس عربى فى جامعة عربية موحدة وبيت عربى موحد.. تباينت هناك الرؤى وتنوّعت الأفكار، فاختلف

القوم واتفقوا، واجتهدوا، وأضافوا، وفكروا بأصوات عالية على أسس علمية جادة، واستمعوا للسفراء الأجانب والمعنيين بالشأن العربى وقضايا الأمة، وكان الحصاد إيجابيًّا بكل المقاييس، ولكنه يفتح المجال للتساؤل: ألا يمكن أن تتعاون مؤسسات الثقافة العربية فى مثل هذا المنعطف التاريخى المهم لتتكاتف الجهود، وتتلاقى الأفكار نحو بنية ثقافية شاملة، يتم بينها التبادل والمشاركة على غرار ما بدأته تلك المؤسسة الجادة التى ما زالت تحبو فى عامها الثالث، مما يبعث الأمل فى توقع كثير من إنجازاتها المرحلية، كلما عمقت توجهها إلى تشخيص الداء العربى مع جدية البحث عن الدواء؟! كلنا نأمل ذلك.

٤

العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة

من المؤكد أن المؤتمر قد عكس بصدق وواقعية طبيعة التوجُّهات الجادة لمؤسسة الفكر العربي، من حيث أهمية الموضوعات المطروحة للدراسة والمناقشة والحوار؛ مما يدل على أصالة المنهج ودقة الانتقاء، مما يمكن تلمس نتائجه فى عدة مسائل :

أولها: التعددية الفكرية التى أبرزتها منطلقات المؤتمر ومحاوره، وأوراق العمل المقدمة، إلى جانب تعددية صيغ المشاركة بين عرب وأجانب، عبر تيارات الفكر المتنوعة، حيث بدا الصالح العام أساسًا للرؤية، وبدت حرية التعبير معيارية الطرح والمناقشة وصناعة المداخلات الجادة.

ثانيها: محاولة تشخيص الحالة العربية بواقعية وقراءة سلبيات الواقع بموضوعية، إلى محاولات الانطلاق إلى البحث عن حلول جادة تنهض على أساس من مراجعة الذات، مساءلة الواقع، وبناء جسور المستقبل إلى جانب جسور العلاقة مع الآخر.

ثالثها: ما تم طرحه من مشروعات مستقبلية بناءة، تعددت أبعادها القومية والمجتمعية، مع التنبُّه إلى البحث فى منطقة المشترك الثقافى والإنسانى بين الشعوب؛ مما يعزز طبائع العلاقات الإنسانية فى أفضل صورها عمقًا ورحابة واتساعًا.

رابعها: دراسة البعد التراثى بين الإحياء والتجديد والابتكار والإضافة والتبسيط أمام النشء دون تسطيح أو تهميش، وبما لا ينتهى إلى نمط من القطيعة

المعرفية، التى يجب الخلاص من هاجس توقعها على أرضية الفكر العربي.

خامسها: التركيز على وجوب إنتاج الثقافة والمعرفة، مع احترام القراءات المنهجية، والبحث فى المناسب والمتاح والممكن عبر آليات العمل الثقافى الجاد، بما يؤسس للتطوير الحقيقى فى منظومة الوعى العربي، ويؤصل لثقافة التغيير على أسس صحيحة بين التراث والمعاصرة تجديدًا وتأصيلًا.

سادسها: الانتقال من ضغوط الواقع إلى صناعة مجموعة من الثقافات المطلوبة لتعديل موازين الأمور، ومنها: ثقافة المساءلة ونقد الذات، ثقافة الوفاء والانتماء مقابل تفشى الجحود والانقطاع، ثقافة الثقة بالنفس والموروث وتعظيم رموز المواطنة والإيقاع القومى مقابل الاغتراب وحالات الفوضى، والانشطار الإنساني، ثقافة التطوع والعمل المجتمعى وتغليب الصالح العام مقابل الإفراط فى الأنانية والذاتية، ثم ثقافة احترام التبادلية مع الآخر من باب التثاقف والتفاعل والتلاقي، وأخيرًا ثقافة الفعل والإنجاز، وتخطى ثقافة القول والشعارات والمزايدات والتبارى فى الأطر النظرية.

سابعها: اكتشاف طبائع التحديات، وتقدير مرجعيات الفكر وحدود المتاح فى منظومة التغيير، دون اختراق للثوابت أو مساس بالأصول ودون صناعة العدوان على المقدسات، أو طمس الهوية والكيانات القومية تحت أى من ضغوط الآخر، مع رفض تام لمنطق التبعية، أو قبول الإصلاح من الخارج.

ثامنها: يمتد الأمل فى مزيد من عطاء المؤسسة تجاه دراسة وتحليل أزمة اللغة العربية والتراث؛ حتى تحتل المساحة اللائقة به وبها فى ظل خريطة العمل القومى الذى تتولاه باقتدار، كما يتوقع منها الكثير فى ظل مشروعات الترجمة، وتأصيل النموذج العربى الراقى على غرار ما تبنته دار الحكمة والرشيد منذ الأعصر العباسية فى فترة ازدهار حركة التدوين.

تاسعها: كما يظل الأمل واردًا حول دراسة مشروع تحليل الخطاب العربى المرحلى

بكل أبعاده وصوره: التربوية، والشبابية، والإعلامية والدينية، وضمان الحد الأمثل من أسس التواصل المعرفى دخولًا إلى بنية نموذج عربى مشترك.

عاشرها: وجوب التكامل والتفاعل بين إنجازات المؤسسات العربية، التى استطاعت أن تنقل المال إلى الثقافة والفكر، وبدا من المتوقع أن تصنع الخُطى الأول فى التكامل العربى من حيث المشاركة والتبادل على غرار رابطة الجامعات الإسلامية، ومؤسسة البابطين، ومؤسسة يمانى الخيرية، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والمجلس الأعلى للثقافة، وغيرها من الجهات المعنية بالهم الثقافى العربي.

تحية لكل جهد خلاَّق يتبنى قضية الثقافة العربية فى ظل التحديات المعاصرة، وتوجد لها مساحة مناسبة على خريطة المتغير العالمي.

٥

ثقافة التغيير ومداخل الإصلاح

لم يأت عنوان هذا المؤتمر المهم من قبيل المصادفة، ولا كان مجرد وليد التجانس اللغوى بين مفردات العنوان وتراكيبه، بقدر ما جاء رد فعل لمجموعة من الاعتبارات وصور التخوُّف التى انطلقت منها أمانة مؤسسة الفكر العربي، نحو السرعة فى إنجاز ما يمكن إنجازه أمام تحديات المرحلة وضغوط الفترة، حول ثقافة الأمة وصورتها الحضارية من كل اتجاه.

لم يأت مؤتمر إصلاح التعليم بمكتبة الإسكندرية من فراغ – حين تزامن – تقريبًا – مع هذا المؤتمر – بقدر ما انطلق من صحة الدوافع والمقاصد الهادفة إلى قراءة واقع التعليم بكل مراحله، وعبر كل سلبياته التى انتهت إلى صور من الانحدار والتدنى باتت فى حاجة لا إلى تشخيص الحالة، فقد تم تشخيصها من أكبر مثقف عربى إلى رجل الشارع، وأصبح المطلوب البحث عن صيغ العلاج الناجع والفاعل، بما ينقلنا من ثقافة التوصيات والأقوال والصراخ والضجيج إلى على ثقافة الفعل وتفعيل المنهج والإنجاز، بعيدًا عن المزايدة والشعار فى ظل حالة الحماس التى سرعان ما يصيبها الخمول والهدوء، إذا لم تُفعل النتائج وتُعظم الأدوار.

وفى كل مؤتمر تجد أصوات البناء وإلى جوارها تظهر بعض أصوات الهدم، ولكن – لحسن الحظ – تظل أصوات البناء أفضل وأقوى، وبين السطور تتراءى لك أصوات الهدم تابعة فى القاعات، ربما تحاول توجيه الضربة إلى ثقافتنا العربية، أو برامجنا التعليمية، من خلال قفاز حريرى على غرار ما تجلى فى مؤتمر المغرب من دفاع

أحد المثقفين العرب عن قناة الحرة والمطالبة بالتغيير من الخارج، وكأن امتنا تحتاج إلى الوخز والركل من جانب الآخر الذى قدمت له عبر مراحل التاريخ أرقى رموز الفكر الإنسان فى كل فروع المعرفة والعلوم. وإذا بالمثقف العربى يتحول إلى خصم لدود لقومه، وعدو حقيقى لثقافته متجاهلًا كل صور الاستعمار الجديد، التى آثرت انتهاك كل حقوق الإنسان جهارًا نهارًا تحت مظلة التحرير الزائف، والعدوان الصريح على الأهل والأرض والعرض والوطن.

صحيح أن أصوات الحق قد تعالت لإفحام أصوات الباطل، وهذا مهم فى قبول التعددية الجدلية، ولكن المؤسف أن تغيب المرجعية الآمنة وسلامة المقصد، وأن تنطلق أداة خبث النوايا ورداءة الفكر إلى التدمير، وهو ما لا يقع فيه من أبناء الأمة إلا الدخيل أو العميل الذى لا يؤمَنُ جانبه، ومع هذا فلا بأس من إنجاح محاولات الإصلاح من خلال ما يراه العميل وما يسمعه. وقس على هذا ما ورد فى ختام مؤتمر إصلاح التعليم من انحراف فكري، جنح إلى ترشيح وجوب التعليم بالعامية من باب السهولة والوضوح، وكأن الجبل قد تمخض ليضع مؤامرة فى نهاية المطاف، لأنه لا يدرى ما وراء دعواه من تداعيات، أوربما لا يدرك شيئا عما يدعو إليه، وينطلق منه سوى إمكانة المخالفة للتيار من باب الرغبة فى الظهور، أو إثبات الذات بأرخص الأثمان، حتى لو جاء على تاريخ أمته وبناء مستقبلها.

إلى هذا الحد يظل الكلام فى المطلق والعام مباحًا أمام الأمم المتقدمة التى تحاول إحياء لغة موليير، ونحن نتنادى بإماتة لغة عاشت أكثر من خمسة عشر قرنا من الزمان، عبر كل ساحات الفكر الإنسانى والعلم والإبداع والمعرفة، تنشر النور فى كل أطراف المعمورة من شرق وغرب.

إن احترام الذات لا يتجزأ عن احترام الفكر والثقافة واحترام الثوابت والأصول الثقافية لكل أمة، والانطلاق الفعلى من استشعار الصالح العام قبل إطلاق النعرات الفردية الواقعة فى دائرة الانهزام أو السلبية، أو اصطناع خصومة فى غير معترك مما يعكر صفو العطاء فى مثل هذه المؤتمرات التى ترمى – أساسًا – إلى البحث العلمى

والحوار الجاد حول قضايا الأمة وهموم الفكر ومشكلات الثقافة وآليات الإصلاح.

صحيح أن هذه الأصوات تذهب سُدىً، ولا تستحق الرد أو مجرد الإشارة، ولكن يبقى النصح واجبًا لأن نتجه جميعًا إلى البناء بديلًا عن الهدم، وأن ننطلق من المنهجية بدلًا من الفوضى والانطباعية، وأن نقدر عواقب ما نقول قبل أن نقول، ليس من باب الخوف من رقيب إلا الضمير ومراقبة الله وصالح الوطن والأمة.

إن مطلب التغيير الطوعى الداخلى يبعث على الأمل فى حدوثه بشرط توافر الإرادة الفاعلة للإنجاز، وخلق ثقافة الحوار والتكامل المؤسسى وبناء الجسور الثقافية، واحترام المشترك النوعى والخصوصية مع تعزيز مرجعيات التغيير وآلياته دون مبالغة أو مغالطات.

فهل آن أن نسقط من حساباتنا المناطق الهزلية فى المؤتمرات، إلا أن تظل زبدا يذهب جفاء ليبقى ما ينفع الناس ماكثًا فى الأرض، وهو أفضل قانون لبقاء ما هو صالح وحق، وفناء كل ما هو باطل وهراء !!

٦

بين العروبية والإفريقية
"حـــوار لا ينقطـــع"

عظيم ورائع أن نتحدث عن العروبة والإفريقية فى هذا الزمان الصعب، وهو يشهد انتحار منظومة القيم والمثل، وموت كثير من المبادئ والأصول، وسقوط الأقنعة عن دعاة حقوق الإنسان وهم يجدون متعة فى قهره وإذلاله عبر أسره أو سلب حريته، أو امتهان كرامته، أو سلب أرضه أو وطنه والمساس بعرضه وشرفه !

وليس عظيمًا ولا رائعًا أن نتحدث عن قضايا لا نعرف لها هوية، ولا نستطيع تشخيص ملامحها وأبعادها ومساحاتها فى مرحلة من الضبابية والغموض، وعصر عاد بالإنسان إلى قانون الغاب والقمع والإرهاب تحت مظلة هيمنة الأقوياء وتسلط الجبابرة، وتخاذل المستضعفين والقناعة بالتبعية والانكسار!

ولكن الأمل يظل موجودًا فى ضرورة التعايش مع أمرين أحلاهما مُرٌّ: فهل من الأفضل أن نؤثر الصمت إزاء واقع مترهل، وصور مهترئة متهالكة، ومشاهد من التشرذم والتمزق والتشتت والانشطار؟ أم نحاول إقالة الأمة من عثرتها، وإفاقتها من سباتها، وانتزاعها من كبوتها التى نتمنى أن تكون عارضة على غرار ما شهدته من كبوات عبر حقب التاريخ، تجاوزتها بجدارة، وظل الاحتلال بمنطق العبقرى العظيم جمال حمدان جملة اعتراضية فى تاريخ الشعوب.

يبدو هذا المدخل الدرامى ضرورة إذا توجهنا شطر الحقيقة فى قراءة الواقع بعيدًا عن تجميله، أو تزيينه، أو تزييفه، أو تشويه معطياته، أو المزايدة عليه، أو المغالطة فى الاستنتاج، أو الاستخفاف بإملاءاته أيًا كانت مرارتها.

فالحق أن مطلب التنمية والسلام هو مطلب حضارى راق، إذا لم يتحول إلى شعار براق، ومفردات فضفاضة تحكى فصولًا من الأمل والطموح، وتتجاوز حقيقة ما هو قائم على الأرض العربية والإفريقية بما يعيق مسيرة التنمية البشرية والاجتماعية والاقتصادية والقيمية والعلمية فى ركاب عالم يتقدم كل يوم، ويقفز قفزات متسارعة نحو ثورات العلم ونتائجه، وتراكم المعرفة وتجددها، ومواكب التطوير والتحديث التى لا تعرف البطء ولا التوقف. ولا تنتظر الرفاق وهم ينظرون بمنظار الدهشة والانبهار، ويكتفون بالاستهلاك والاستيراد، وربما سوء الاستعمال أو حتى الجهل به.

تلك هى قضيتنا بشفافية وبمنأى عن مخادعة النفس، أو مراوغة الآخر، أو تزييف الوقائع، أو محاولة الانفلات منها بالمراوغة أو الهروب.

فى هذا السياق القاتم، وفى ظل الحصار الإنسانى الكئيب تتعالى أصواتنا على استحياء بمنطق العروبة والإفريقية أمام مشاهد تدعو إلى التعجب والسخرية من كل شيء : فهذا أستاذ جامعى جزائرى عربى يلقى محاضرة على أرض عربية تتهم بالتعصب للقومية، وبين يدى جمهور عربي، ووسائل إعلام عربية، ويتناول ـ وهذا هو موطن السخرية الدرامية ـ قضية الهوية العربية الإسلامية ليلقى المحاضرة بالفرنسية، ويتلقاها الجمهور فى ترجمة فورية بالعربية، فهل هانت علينا أنفسنا إلى هذا الحد المريب الذى نشرح فيه قضيتنا وهويتنا وكياننا وشخصيتنا بالفرنسية.

ومن الجميل أن الشعب الفرنسى من أكثر شعوب الأرض غيرة على لغته وهويته، بدليل ما صدر منذ أيام من المسارعة إلى إنقاذ لغة "موليير" من الضعف اللغوى على ألسنة الشباب، بتغيير فورى لمناهج اللغة الفرنسية، والتركيز على الإملاء والقواعد والإنشاء .. فأى عبقرية هذه فى أمة تحترم لغتها باعتبارها الأصل والمدخل عبر تاريخها، وإلى بقائها الشرعي، ومستقبلها فى زحام تيار العولمة. ومن الأجمل أن يأتينا سفير جمهورية الصين الشعبية لافتتاح أسبوع ثقافى صينى بالجامعة، فيأبى الرجل إلا أن يتحدث إما بالصينية أو بالعربية، وليس بالإنجليزية، رجل

يحترم نفسه ووطنه ولغته احترامه للأرض، التى أقام عليها معرضًا لثقافته وفكره للتعريف بإنجازات شعب عظيم وتاريخ عريق.

ويدخل فى السياق نفسه، مستشار قازاقستان حين يأتى للحوار حول إلحاق بعض طلاب بلده بالجامعة، وإجراء معادلة لهم فتحييه بالإنجليزية فيرد التحية بالعربية، راجيًا أن تتسع دائرة الحوار بها لأصالتها وعراقتها ووجوب عالميتها، فإذا به يتحدث العربية ربما أفضل من أهلها ! ويمتد الموقف إلى الأساتذة الإيطاليين فى سياق مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية، وهم يتحدثون عن قضايا الشباب فيتشبثون بالإيطالية التى تتم ترجمتها الفورية إلى العربية، رغم معرفتهم بالإنجليزية لغة وسيطة، ولكنهم شاءوا أن يحافظوا على مقومات الهوية !!

أن نلجأ إلى استخدام الإنجليزية لغة رسمية لمؤتمرات فى الطب أو الكيمياء أو الصيدلة، أو غيرها من علوم تخاذلنا أمامها بعد أن كان أسلافنا فيها روادًا شوامخ تنقل عنهم الدنيا فى عصر النهضة العربية والظلام الأوربي، فهذا قد يُبرر؛ لأننا نستورد النظريات والنتائج والأفكار وحصاد التكنولوجيا ونكتفى منه بالاستهلاك فحسب.

أما أن تصبح الإنجليزية هى لغة الحديث من باب التزيُّد حول قضايا المجتمع العربي، أو حقوق الإنسان أو حرية التعبير، أو مشكلات المجتمع الإسلامي، أو هموم المجتمع الإفريقي، فهذا أمر آخر يعنى - بجلاء - أننا أسرفنا على أنفسنا حين احتقرنا لغتنا لمجرد إرضاء حفنة من الحضور الأجنبى يمكن أن نترجم له بلغته، لا أن نترجم لأنفسنا إلى لغتنا ! وهو ما يعنى أيضًا استمرار مسيرة الضعف والهوان التى نعانيها على الأصعدة الثقافية حين تتبارى فى استخدام مفردات وجمل يعرفها المبتدئون فى تعلم اللغة، ولا ضرورة للتعامل من خلالها إلا للوجاهة أمام الآخر بأننا نحتقر أنفسنا، وننفر من الأداء بلغتنا التى كانت ولا تزال من أغنى لغات الأرض، وأغلاها، وأبقاها تاريخًا، وأقدرها على التطور والتجديد ومواكبة حركة العلم والمعرفة شريطة أن نكون منتجين للعلم وصناعًا للمعرفة !

إن البحث عن طوق النجاة فى هذا العالم المتغير الذى بات يرفض الكيانات الصغيرة ويبحث عن القوة فى التكتل يتطلب تحويل عنوان هذا الملتقى إلى صيغ مفعلة، وبرامج قلة للتنفيذ قبل انتهاء تاريخ الصلاحية، ومشروعات منجزة على أرض الواقع العربى الإفريقى بدلًا من التوقف عند حد القول والشعار، أو التوصيات والنتائج التى تصدر عن حماس وانفعال، وبزوالها ننسى همومنا وشجوننا العربية والإفريقية، وننخرط فى الاستجابة لإملاءات الآخر، ونرتضى العيش فى سوق التبعية، واللهاث وراء كل ما يقدمه لنا من فتات !!

إن التحدى الحقيقى فى منطق العروبة والإفريقية أن تراجع هذه الأمة نفسها من باب نقد الذات وليس (الجلد)، وأن تبادر إلى المصارحة بما انتهى إليه أمرها من تدهور وتخلف فى عصر الانفجار المعرفى والعلمي، وأن تدرك حقيقة حديث العالم وقسمته بين شمال وجنوب، بين متقدم ومتخلف، بين قوى وضعيف، لعلها تأخذ بزمام المبادرة اقتداء بالتجربة اليابانية أو الصينية أو الهندية التى بدأت من نقطة الصفر لتنتهى إلى اللحاق بموكب الأقوياء بمنطق العلم والمعرفة سعيًا إلى القمة !

ويزداد التحدى وضوحًا مع مطلب التلاقى والمصارحة، لاسيما فى إطار ما تمتلكه الأمة العربية والإفريقية من مسلمات التاريخ والجغرافيا والأرض والفكر والثقافة، وحتى ما بين اللقاءات الإفريقية والعربية من وشائج القربى التى صنعها الأصل، والجوار، ومواجهة الأزمات، ووحدة الهدف، والإيمان بتقارب المنهج والمصير، بعيدًا عن منطق الكراهية والعدوان، أو لغة الاحتلال والقهر التى يمارسها أدعياء الحضارة ـ وهم أعداؤها ـ تحت مظلة استعراض القوة تجاهلًا لمعطيات حركة التاريخ، التى أذلت كثيرًا من الطغاة فبادوا وانتهت أيامهم.

المدخل الآمن إلى العروبية والإفريقية هو التكتل والتقارب فى لغة بسيطة أساسها التكامل والتكافل والتعاون ورسم استراتيجية يعرفها جيدًا ذوو الاختصاص فى

مشروع التنمية والسلام، فى ظل منظومة العمل العربى الإفريقى التى يرسمها السياسيون والاقتصاديون بكل اقتدار.

والمدخل الصحيح إلى العربية والإفريقية أن نعيد قراءة الواقع بشكل مختلف يسمح بإعادة صياغته، وإعادة استكشاف طبائع العلاقات بين الأشياء، فهل آن لنا ذلك عبر حوار جاد ومناقشات أكثر جدية حول القضية ؟!



أسئلة حائرة .. ومازالت الإجابة مفتوحة !

على مدار أربعة أيام هى عمر مؤتمر العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة بين قاعات الوزراء والسفراء بقصر المؤتمرات بمدينة مراكش المغربية العريقة دار حوار المفكرين العرب والأجانب ، وانطلق صوت العقل وصقل المعرفة محكوما بدقة المنهج والموضوعية من جانب، وفى موازاته صوت الانفعال والوجدان معبِّرًا عن تداعيات الشجون وأصداء الهموم العربية من جانب آخر. وبين الجانبين كلَيْهما ترددت التساؤلات، ومعها ظهرت بعض الإجابات والتفسيرات كاشفة عن اجتهادات وتأملات؛ ولكن الساحة تظل واسعة للبحث عن إجابات أخرى، تظل معلقة بجهود مؤسسة الفكر العربى فى منطلقاتها الكبرى عبر فضاءات الثقافة التى تتحول من خلالها إلى مرصد آمن لقضايا الفكر المرحلي، انطلاقا من دراسة وتحليل وضع الإنسان العربى المأزوم، إلى التجاوب مع آلامه وطموحاته نحو رؤية أكثر وضوحًا فى تجليات قراءة الواقع ورؤية المستقبل بمنأى عن الضبابية أو التعصُّب، أو الانكماش والتقوقع، أو التسطيح والترخُّص، أو الانكفاء على الذات والتغافل عما يدور حولها من متغير.

فى سياق المؤتمر تقاربت المسافات، واتسعت مساحات الفكر، وظهرت رحابة العقل العربى حين يتجه إلى الآخر تفاعلًا معه، تأثرًا به وتأثيرًا فيه، فكانت الحوارات العلمية، وظلت التساؤلات قابلة للطرح والبحث عن إجابات شافية حول محاور متعددة منها: إلى أى حد يمكن إعادة النظر فى إحياء موروثنا الثقافى بين

الحوار والتجديد والابتكار والإضافة، باعتباره ركنًا قويًا من أركان الأمة، وأصلًا من أصول تاريخها وشخصيتها، يستحق التوقُّف والتأمل والمراجعة عبر منهجية آمنة، وقراءات عصرية متجددة ؟ !!.

وإلى أى مدى يمكن تحديد الفواصل الدقيقة بين المجتمع الإنسانى حين يندفع عبر قوافل التنمية والرخاء، وبينه حين يتوقف عند منطق الخصومة والعدوان، أو عند دوائر السيطرة والطغيان بما يعوق الضعفاء عن الاشتراك فى الركب، أو تحقيق الإنجاز، أو التفرغ للإسهام فى منظومة تقدم الإنسان؟!!.

إلى أى درجة يمكننا الإفادة من تجارب الأمة وتجارب الآخرين، حين نضعها فى دائرة الاختبار والتقويم، وتصبح موضعا للعظة والابتكار وتراكم الفكر، والإبانة عن مسارات الإصلاح، لاسيما من قراءة تحولات الإعلام العربى - مثلًا - من السالب إلى الموجب فى سياق مقارنته بين واقعه فى نكسة يونيو واستراتيجية المفاجأة والتخطيط فى نصر أكتوبر؟ وقياسًا على تجربة الأمة تنطلق قراءاتنا لتجارب الأمم، التى أحرزت نجاحات وتقدمًا فى حقول المعرفة وثورات التكنولوجيا والتقدم العلمي، على طريقة التجربة اليابانية والصينية وأشباهها ؟!!.

إلى أى السبل نتجه فى مساق الشراكة الحضارية الجادة التى تؤمن بالمشترك الإنسانى فى الأجناس والأعراق والأديان، دون انفصام مرجعى أو انشطار ذاتى بقدر الانطلاق من منظومة الحوار بدلا من التصادمية والصراع؛ حوار الأديان حتى تحترم الثوابت والمقدسات، وحوار الشعوب حين يلتقى فى فكرها التحديث مع التأصيل، احترام الموروث وفهم القيم المستحدثة، تعزيز الهوية والكيان وتجنب خلط الأوراق وإرباك المصطلحات، وتداخل المفاهيم وضبابية الرؤى وفوضى الأحكام؟ !!.

وإلى أى الأهداف وعندها نتوقف فى مراحل المساءلة والمراجعة الصادقة حين تنطلق من إمكانية نقد الذات مع الثقة فيها بعيدًا عن التهويل أو التهوين، وبمنأى

عن النرجسية والاستعلاء أو الاستخفاف والاستهانة، وبمعزل عن مواجهة الصدمة وتحدى الواقع فى ظلال التشبث بالهوية، دون انزعاج من الانخراط فى تيار التغيير والتحول المرحلى؛ طبقًا لما هو متاح من الآليات والإمكانيات والاستعداد الراهن ؟ !!.

بمثل هذه الأسئلة ونظائرها يظل حقل المراجعة رحبًا، وتظل الإضافات ممكنة، إذا امتلكنا من منظومة القيم ما يبيح لنا احترام مصادر الإصلاح وتقدير ضروراتها دون انحياز إلا للحق وسلامة المرجعية، ودون اندفاع فى اتجاهات الشطط والتباهى من جانب، أو حالات التماهى مع الغير من جانب ثان .. ومثل هذه الأسئلة يظل مجالًا مفتوحًا لمئات الحوارات المنهجية، التى نحتاج فيها إلى تأصيل الهوية فى سياق المتغير والمعاصر.

ثالثًا : ثقافة التغيير " المشروع والواقع "

توطئة قرائية.

١ - موقع الثقافة العربية على خريطة المتغير العالمي

٢- من مرتكزات التغيير المرتقب

٣- آليات التغيير الثقافي

٤ - تحديد الموقف العربى من المشترك الثقافى

٥- التغيير: هل يمتد إلى جوهر القانون الدولي

٦- مواكبة المتغير بشروطنا

٧- التوسع فى استيعاب دوائر المشترك

يهدف عنوان المؤتمر إلى إعادة وضع العرب على خريطة العالم فى منعطف الدراسة المنهجية بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة، فثقافة التغيير واردة ومطلوبة، تتسق مع إيقاع كل مرحلة، أما تغيير الثقافة فلا محل له إلا إذا بدا مؤشرًا للتحول إلى تجديد الثقافة من خلال علاقتها بغيرها، مما يعد مدخلًا آمنًا إلى تحقيق التواصل المعرفي، والخلاص من شبهة الانقطاع، أو الرضا بالتبعية الفكرية، أو إيقاف إحياء المشروع الثقافى العربى وتطويره وتحديثه فى ضوء المتغير العالمي، ووجوب مواكبة ثورات العلم وتراكم المعرفة.

منظومة التطوير والتحديث منظومة عربية أصيلة، وهى جزء من الرِّهان على صحة التوجهات وصدقها فى بنية المستقبل العربى بصورة جادة، وهى أيضًا الهاجس الأول، الذى تنطلق منه القضايا الفكرية على نحو ما نراه من ظواهر تحديث التعليم - مثلًا - أو الاجتهاد فى مواكبة ثورات العلم ونتائجه، أملًا فى التحول العربى من دور الاستهلاك والاستيراد إلى دور أكثر فاعلية فى المشاركة الحقيقية فى إنتاج العلم وبنية الثقافة. الأمر هنا يعتمد على تثقيف شباب الأمة بمنطق مختلف، يجتاز تكرار النسخ المشوهة التى قد يفرزها - مثلًا - الحفظ والتلقين والاستظهار، إلى محاولة إيجاد نماذج جديدة قادرة على النقد والابتكار والتحليل، وإعمال العقل والاجتهاد، والتنافس فى اتجاه التميز والجودة، بديلًا عن حالة الترهُّل والتواكل والقناعة بالفتات، الذى نتلقاه من إنتاج الآخر مصحوبًا - أحيانًا - بالدهشة والانبهار، أو مقترنًا - أخرى - بالسلبية فى معظم الأحوال.

من حقنا ـ وواجبنا أيضًا ـ أن ندعو إلى محاولة التوازى والتوازن مع الآخر، حتى نجرؤ على الحوار معه بمنطق النِّدِّيَّة بدلًا من حالة الاستجداء أمام غيبة أسرار المنتج الثقافي، بسبب انعدام المعرفة الواعية بالطبائع النوعية للثورات العلمية، أو أبعاد التكنولوجيا التى تجعلنا دومًا فى حالة استقبال وترقب فحسب!!

١

موقع الثقافة العربية على خريطة المتغير العالمي

لا شك أن للمؤتمرات أهميتها المؤكدة فى تبنى قضايا الفكر، واحترام الصوت الجماعى والفردى على حد سواء، ففيها منطق المشاركة والجدل، وتصحيح المفاهيم وتشخيص القضايا، ومنطلقها الأساسى يبدأ من البحث الجاد عن الحلول بين الممكن وغير الممكن، ثم ينتهى عندما يحكمها كل من صدق النوايا، وصحة المنهج.

فى هذا السياق جاء عطاء المؤتمر الثالث للفكر العربى بمدينة بمراكش بالمغرب الشقيق، حيث نظمته مؤسسة الفكر العربى بوصفها منظمة غير حكومية تهتم بشئون الأمة واقعًا ومستقبلًا، وتلتقى فى بوتقة عطاءاتها كل الأصوات بين القومى والوطني، الدينى والقيمي، الإنسانى والإقليمي؛ حيث تتمتع بهذه التعددية التى تظل مطلوبة فى ضبط موازين الأشياء، ودراسة القضايا من خلال طرح منهجى جاد.

تعاملت المؤسسة، وتعامل المؤتمر مع قضية العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة بحَيْدة وموضوعية، قوامها تحديد مفهوم تغيير الثقافة، بعيدًا عن الإطلاق أو التعميم، فما كان للعرب أن يغيروا ثقافتهم بقدر ما آن لهم أن يعيدوه من صياغة مواقفهم فى سياق المتغَّير العالمى من حولهم، لعلهم يتحولون إلى إنتاج الفكر والمعرفة، أو يشاركون فى ثورات العلم والتكنولوجيا، أو يتجاوزون مرحلة الاعتماد على المنتج الثقافى الأجنبى استهلاكًا واستيرادًا فحسب.

تحدَّث فى اللقاء بعض السفراء الأجانب، الذين أكدوا احترامهم للثقافة

العربية بحكم معرفتهم بتاريخها العريق، وتواصلها الرائع فى شتى مجالات العطاء الإنساني، فكان هذا الاعتراف موقفًا موضوعيًّا يستحق التسجيل والثناء، فى مقابل تنكر قلة من الباحثين العرب لدور الأمة فى التاريخ، ولهاثهم المتصل وراء كل ما هو أجنبى على حساب الإبداع العربي، وكأنها كانوا أكثر وفاءً للثقافة الغربية من أهلها أنفسهم والمفارقة هنا مهمة بما يستحق المراجعة، لاسيما حين يتعلق الأمر بالمنهج، بعيدًا عن الأهواء والأمزجة، وبمنأىً - أيضًا - عن التجاوزات المفتعلة فى محاولات الانسلاخ من قضية الانتماء لهذه الأمة بكل تاريخها، بصرف النظر عن كآبة واقعها، الذى يظل مجرد جملة اعتراضية لا تعطل مسيرتها الجادة.

ومن المؤكد أن القراءة الواقعية للأمور تعطى الغرب حقَّ التفوق والتقدم العصري، بحكم تداعيات الثورة الصناعية، وتوالى ثورات العلم وتراكم المعرفة، وما حدث فى موازاتها من انكسار للأمة العربية التى شغلت بهمومها ولعق جراحها؛ بحثًا عن الحرية والاستقلال من جراء شراسة الحركة الاستعمارية التى كبَّلتها بقيود التخلف إلى حد محاولات طمس الهوية والتهميش، وإسقاط الكيانات القومية بقدر المستطاع والمتوقع والمخطط آنذاك.

ومع هذا كله مثلت حركات التحرُّر الإقليمى التى تشابهت فى كل الأقطار العربية من حيث الدوافع والغايات، مثَّلث تحولات مهمة فى تاريخ الأمة التى لم تفقد شرعية البقاء، ولم تفقد الذاكرة القومية، فظلت متماسكة بحكم الأصالة والعمق، وتماسك الجذور وعراقة الأصل.

من هنا بدت المفارقة غريبة بين اعتراف الآخر بنا وبتاريخنا، ومحاولات نفرٍ منا أن يُحقِّر - ولو قليلًا - من شأن أمته أو ينال من تاريخها!! وبات من المطلوب ترسيخ بعض المفاهيم فى ذاكرة أبناء الأمة ممن يختصمونها - أحيانًا - فيفتعلون معها معارك فى غير معترك، ومن هذه المفاهيم ما تصنعه الحداثة حين تحمى التراث، إذا تجنبنا الفكر التصادمى والصراعى إلى تعزيز مفهوم الحوار والمشترك الثقافى الإنساني، ومنها أن صدمة الحداثة لا تزعجنا إذا استوعبناها بجدية وبثبات وقوة دون خوف -

أو شبه تفريط - فى الهوية والثوابت، ما دمنا على ثقة من أنفسنا وتكويننا الفكرى، ومنها إمكانة مشاركتنا فى الثقافة الكونية المعاصرة، كما شارك أسلافنا ممن أصَّلوا وأسسوا لمدارس العلوم على طريقة ابن سينا، والرازي، والخوارزمي، وابن النفيس، وابن الهيثم، والكندى والفارابى وابن رشد وابن خلدون، وغيرهم من أساطين الفكر ورواد العلوم وبناة الثقافة.

ومنها وجوب حدوث التكامل المؤسسى العربي، وإذابة الفوارق الجليدية بين ماهو رسمى وما هو مجتمعي، لاسيما إذا توحدت الأهداف وصدقت النوايا وقويت الهمم وتقاربت الرؤى تحت مظلة الإصلاح المنشود فى بوتقة المعرفة، وبناء الجسر الثقافى القوى الذى يعترف بالآخر تأثُّرا به وتأثيرا فيه، مع احترام منطق التغيير الطوعى الداخلى لمواجهة التحديات، واللحاق بإيقاع المرحلة ومتطلب الفترة، وكذا احترام مرجعيات التغيير فى ظل منظومة القيم، وتفعيل الإنجاز، وثقافة الإنتاج.

٢

من مرتكزات التغيير المرتقب

١ـ تحديد صُناع التغيير :

وهم شباب الأمة من غير الدخلاء عليها، شريطة التواصل مع جيل الرواد والشوامخ، انطلاقًا من الفهم الواعى للتراث إحياءً وتجديدًا وحوارًا معه، وجدلًا من خلاله، ودخولًا إلى تيسيره وتقريبه إلى نفوس النشء، حتى لا يصيبه ـ أى النشء ـ الإحباط أو النفور من الهُوية، وهنا لابد من احترام تاريخ الأمة باعتباره المدخل الأساسى إلى بقائها واحترام هويتها وكيانها، والمحافظة على شخصيتها، عملًا بتخوُّف أمير الشعراء ـ أحمد شوقى ـ عبر قولته المشهورة :

مَثَلُ القـوم نسُـــوا تاريخَهــم ... كلَقِيطٍ عـَـى فى الناس انتسـابـا

أو كَمَغْلُـوبٍ عـلى ذَاكِـــرَةٍ ... يشْتكى من صِلة الماضِى انقِضابا

من واجبنا أن ندق ناقوس الخطر من تداعيات نسيان التاريخ، مع ضرورة الالتفات والتنبيه إلى التشبث بالأصول والجذور، وإلا فقدت الأمة شرعية وجودها، والأسوأ منه أن تفقد الذاكرة، وهذا ما يتمناه الخصوم من أعداء الإنسان حين يجنحون إلى محاولات المسخ أو صناعة التشويه الثقافي، من باب إفقاد الثقة أو الاستهانة والاستخفاف بعطاءات الأمم. والشرط هنا فى صناع التغيير أن يكونوا من أبناء الأمة الذين ثقفوا واستوعبوا، قرأوا وألَّفوا وصنَّفوا وترجموا ونقلوا وقارنوا، من الذين نقدوا وحلَّلوا، وفهموا ثقافتهم بمعزل ـ أيضًا ـ عن حالة القلق النفسى التى ربما تنتهى إلى إيثار السير فى ركاب الآخر من باب التبعية المطلقة بكل

ما تحمله من معانى الخنوع واستشعار الدونية وفقد الثقة بالنفس، وتراجع قيم الانتماء.

٢ – الطبيعة النوعية لمادة التغيير :

والوقوف عندها مهم، فثمة أصول وثوابت ومقدسات وقيم ومثل وأخلاقيات، وثمة نماذج عليا تعتد بها الأمة، وهذه تظل معيارية بقدر قدرة الأمة ذاتها على البقاء، وإثبات الوجود، أو الاندفاع نحو مشروعها الفكرى بوعى وحذر، دون ذوبان فى فكر وافد؛ وهو ما حدث لأمتنا حتى فى خضم أعتى حركات المد الاستعمارى البشع، تلك التى حاولت النيل من ثقافتنا الرسمية والشعبية؛ صحيح أن أجل الاحتلال قد طال زمانًا، ولكنه ظل بمنطق الراحل العظيم " جمال حمدان " مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ شعوب المنطقة؛ حيث توالت حركات التحرر الوطني، وتلاحقت الثورات العربية التى تجانست فى الأفكار والمبادئ، وكان أرقى حصاد للتحدى الحقيقى هو استدعاء الموروث، والمحافظة على الكيان والشخصية القومية أمام موجات التهميش ومحاولاته، وفى مجابهة التحديات التى حاولت طمس الهوية، أو المساس بالكيان القومي.

ويحسب لهذه الأمة قدرتها على تجاهل الصغائر وقت الشدائد، حيث تراجع نفسها وتعيد قراءة واقعها مع قراءة الآخر، لتعرف السبيل إلى ضمانات بقائها بعيدًا عن الانكسار أو الانهزامية أو الهروبية، أو الرضا بالضياع أو الاستسلام. فهى أمة مجاهدة ـ بطبيعتها ـ منذ سادت العالم كله تنشر فكرها، وتنير الأرض علومها على مدار ثمانية قرون من عمر الزمان، أزاحت غياهب الظلام عن أوربا عبر معابر الثقافة والفكر، مستندة إلى ما تمتعت به من الموسوعية، والرحابة، مع التواصل مع الآخر أخذًا وعطاء، تأثرًا وتأثيرًا، دون تهويل أو تهوين، ودون استعلاء ذاتى أو استخفاف بالغير.

ربما لأنها جاءت أمة وسطًا تعرف متى تأخذ ومتى تعطي، وماذا تبدع وماذا

تعطي، دون تطرف هنا أو هناك، ودون انحياز إلَّا إلى أغلى ممتلكات الإنسان من قيم الحرية والمساواة والإخاء، مع تعزيز قيمة العقل واحترام الاجتهاد والحوار، وما يُتوِّجها من قيم التقدير لكل منجزات الإنسان باعتباره إنسانًا، وأن المشترك القائم بين شعوب الأرض هو ما ينفع الناس كافة.

٣ – ماهية مصادر التغيير :

ولأنه جزء من مكون الحياة على كل المستويات الشخصية والوطنية والقومية والإنسانية، تظل مصادر التغيير دالة على عزة الأمة أو ضعفها، مما ينفى فرضية قبول التغيير بإرادة الآخر ـ أو تحت ضغوطه ـ الأمر الذى يعكس من مشاهد الهيمنة والسيطرة والسطوة مالا تتقبله الأمة ولا المرحلة، فرياح التغيير ينبغى أن تنطلق من الداخل بحكم التفاعل والتلاقى والتعارف والإلمام بمقدرات الآخرين، ونقد الذات، ومراجعة الحسابات، وبحكم الاعتراف بطبيعة مسار التطور التاريخى فى منظومة الحياة الإنسانية بأبعادها المختلفة.

حساب التغيير حساب خاص داخلي، لا شأن له بما يفرضه الأقوى على الأضعف، ولا علاقة له إلا بالاتساق مع إيقاع الفترة، مع ضرورة امتلاك القدرة والأدوات لأن نكون دومًا على مستوى الحدث، دون تقهقر أو تراجع فى عصر شهد ـ ويشهد ـ من التكتلات ما ينذر بوجوب التوحُّد والتلاقى حتى بين الأقوياء، مما يستدعى تجنب الانشطار والتشرذم مع وحدة الانقسام، فليس مقبولًا الآن أن تعيش فكرة الجزر المتباعدة بين دول الأمة، على الرغم من امتلاكها أخطر أدوات التلاقى وأغلاها من وحدة الأصل والتاريخ، والمشترك الوجدانى والعقلى والثقافى والإبداعى والعلمي، منذ تكلم العلم بالعربية فى كل أرجاء الأرض لحقب متلاحقة من عمر الزمان.

مصادر التغيير ينبغى أن تظل قومية ووطنية، تنبع من عمق الوطن، وتنتهى إليه تطويرًا وتحديثًا وابتكارًا وتجديدًا، وهو منطوق التنمية البشرية التى لابد أن

تنهض على أسس قوية وأصول أقوى من الوعى بوجوب التفوُّق والتميز، وتحقيق الجودة، وتشجيع الابتكار، ودعم الموهوبين، وحماية النخبة ورعايتها حتى تستعيد الأمة مشاهد من عظمة ماضيها المشرق، دون ادعاء أو مزايدة.

لا مانع فى توصيف ماهية مصادر التغيير من قبول التأثير والتأثر، ومن ضمانات التلاقى والتفاعل والتثاقف، ولكن شريطة القدرة على الاستيعاب والهضم عن وعى وفهم، ثم صناعة المزاوجة الهادئة بين الثوابت والمتغير دون جور على حساب أى منهما، أو قبول إسقاط الآخر من الذاكرة، فللموروث قيمته واحترامه وتقديره، وللجديد أيضًا ضرورته ومنزلته، وله دوره فى نهوض الأمم والشعوب من كبوتها التى تبدو مؤقتة فى معظم الأحوال، ولاسيما لدى الأمم ذات التاريخ والعراقة.

٤ – توجهات التغيير والعقبات :

وجوب التوجُّه إلى تأسيس المزاوجة الهادئة بين الموروث والمستحدث، ولا مانع مطلقًا من تواصل الحوار بينهما وحولهما، مع مراعاة تجاوز العقبات بشكل منهجى أكثر دقة، يبدأ من تحصين شباب الأمة من خلال تجديد الخطاب الشبابى متعدد الأبعاد؛ من الخطاب القومى والوطنى إلى تنمية روح الانتماء.. إلى الخطاب التاريخى العصرى المتجدد.. إلى تجديد الخطاب الثقافى الدينى والقيمي، دون تردٍ أو انحسار أمام جبهات الجمود، أو موجات الرفض، أو مقاومة التطوير. **مع الأخذ فى الاعتبار أهمية مواجهة التلوث الفكرى والوجدانى المُرسل إلى شباب الأمة عبر الفضائيات، بما يستحق الدراسة والإعداد الدقيق للمواجهة بتأمين ثقافات قومية رصينة، تأخذ فى الاعتبار طبيعة التنامى والصعود الفكرى قبل أى اعتبار آخر، وتظل المقاصد العليا هنا ضامنة لعدم التهوين من خطر العطاء الإعلامى المغرض؛ مما قد يضعف تكوين شباب الأمة فى الاتجاه القومى الصحيح.**



آليات التغيير الثقافي

من المؤكد أن ثقافتنا العربية عرفت مناهج التغيير والتحول والتطوير بشكل مرحلي متجدد، وإلا ما عاشت ذلك الزمن الطويل على الرغم من التحديات التي واجهتها، وانتصرت عليها، وتجاوزتها في كثير من حقب التاريخ، ولأنها كانت كذلك فقد بدت قادرة على تحقيق عدد من المنجزات المهمة، التي يجب ألا تُنسى أو تُتجاهل في زحام الأحداث، ومنها :

- أنها امتلكت من المرونة والرحابة والعمق والاتساع ما جعلها مهوى أفئدة شعوب الأرض التي تعرَّبت أو أسلمت، فأدركت أنها حضارة الحياة وثقافة الوجود وفكر المستقبل، تناهض العدم، وتأنف من التدمير والخراب أنفتها من العدوان والقهر، فبدت ثقافة بعث الحياة في الأشياء وغرس الفسيلة حتى في لحظة قيام الساعة، وثقافة المنع من قتل طفل، أو امرأة، أو شيخ، أو عابد، أو حتى قطع شجرة.
- امتلكت من الانفتاح الذهني والوجداني ما قرَّب المسافات بين أدب الأندلس وأدب المشرق، وما أفسح المجال لكل علماء الأرض من أفريقيا ووسط آسيا وشرق أوربا لأن تكون لهم إسهامات ومشاركات جادة في تأصيل فروع الثقافة، وتعميق معطياتها، ولو كانت - جَدلًا - أغلقت على نفسها الأبواب، أو أوصدت نوافذها أمام حركة الترجمة من فكر الآخر وإليه لكان الموقف مختلفًا تمامًا، ولما حققت من صور الإنجاز ما يسند - بحق - إلى أقطابها الكبار.

- بدت ثقافة شجاعة وجسورًا وصبورًا حيث تحملت من صور العنت والإيذاء ما أصاب أهلها على أيدى ما يسمى بالاستعمار والاحتلال فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، حيث عاد إلى البشر قانون الغاب أو عادوا إليه، وساد منطق القوة والعنف، فامتهنت معه حقوق الإنسان، واغتُصبت فى سياقه الأوطان، واستشرى الفساد مع قتل الأبرياء، وسُلبت الثروة والخيرات من قبل هجمات بربرية شرسة لم تعرف للثقافة حقًّا ولا واجبًا، بدأت بهجمات التتار، إلى الحروب الصليبية، إلى استعمار القرن العشرين، والكل يسعى إلى النيل من الثقافة العليا.. التى عرفت قيمة الإنسان، وعلَّمته كل قيم الحق والخير والجمال والعدل والإنصاف والتسامح.
- وهى ثقافة إنصاف الآخر، فلم تبخل عليه بالمشاركة فيها بكل أدواته وإسهاماته وآلياته، وقد زادها ذلك ثراءً وعمقًا فجعلها ثقافة جاذبةً لا طاردة، وبدت ثقافة مشوِّقة لا منفرة، لم تعرف الدموية ولا الفوضى، بقدر ما طرحته من صور التنمية البشرية للإنسان بصرف النظر عن تنافر الأجناس، أو تعدد الأديان، أو صراعات المذاهب. فتحت ذراعيها لتضارب الأفكار فبدت ثقافة التعدُّدية والتنوع التى لا يجمعها إلا وحدة النوع الإنساني، كما بدت ثقافة الحرية التى لا يحجبها إلا التجاوز فى امتهان حرية الآخر، أو العدوان على حقوقه وآدميته.

بدت ثقافتنا بكل هذه الملامح وتلك القسمات فى حاجة إلى عدة اعتبارات، منها: اعتبار الإنصاف لأرصدتها التاريخية، بكل ما كان لها من الأثر فى محاور الأخذ والعطاء على السواء، مع اعتبار الاعتراف بدورها البَنَّاء الذى أعطى القياد للآخر، فأضاف وجدَّد وابتكر حين هيأت له ظروف الحياة ما تمتع به من الاستقرار وفرص التنمية، فى الوقت الذى شغل فيه أهلها بمقاومة البغى وإجلاء المحتل، والخلاص من تداعيات العدوان، وبات عليهم فى ظلال حركات التحرر وبعدها أن يتجاوزوا حد النظرة الماضوية، وأن يتجهوا إلى رؤية المستقبل بعد أن سُلبت منهم الأدوات،

فأصبح المطلب صعبًا وشاقًّا يستلزم مزيدًا من القوة والجلَد لتعويض ما فات الأمة في فترات الاحتلال، ولقراءة الواقع بموضوعية وشفافية، ثم الاندفاع إلى المستقبل من خلال رؤية واضحة بعيدًا عن المخاتلة أو المغالطة، **من هنا يبدو العبء ثقيلًا على أهلها، لولا أنهم يمتلكون من الأصالة والتاريخ وما يشجعهم على تجاوز المنعطف بكل مشقاته، وتوظيف المتحول إلى حيث يريدون، دون مساس بالثوابت، أو اجتراء على الهوية أو إهدار للكيانات القومية.**



تحديد الموقف العربى من المشترك الثقافي

لم يعد الوقت ولا المرحلة تسمح باجترار مفردات الصراع الحضارى التى ثبت فيها التجاوز للحقائق، ولا حتى مفردات الحوار باعتبارها النموذج الأفضل للتثاقف ولقاء الأفكار، وتجانس المواقف؛ ذلك أن البحث فى دائرة المشترك الإنسانى قد تبدو أكثر فائدة من قبيل التأصيل لكل ما هو إنسانى جامع بين البشر بعيدًا عن التقسيمات المصطنعة بين الأجناس، وأهل الأديان، وعبر الزمان والمكان.

يبدو المنطلق الأساسى فى المشترك مسجلًا فى النص القرآنى الكريم من قوله تعالي:

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾

صدق الله العظيم.

حيث إن التلاقى فى الأصل واحد ووارد فى وحدة الخلق، ثم جاءت التعددية مدخلًا ضامنًا للعودة إلى المشترك من باب التعارف، وتوظيف لام التعليل (لتعارفوا).

يمتد المنطلق عبر جوامع الكلم فى جمل موجزة حدَّث بها الرسول ﷺ الناس جميعا فى حجة الوداع، حين خاطبهم قائلًا:

﴿أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى ، أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

فهى إذًا وحدة المعبود الخالق، ثم وحدة الأصل والنشأة، ثم وحدة المصير والمطاف، وبينهما رحلة التعددية المنتهية إلى منطق (الكل فى واحد).

ولنسمح لأنفسنا – مؤقتًا- أن نستعير من توفيق الحكيم شعاره فى "عودة الروح" التى طبقها على المصرى القديم والمعاصر من حيث البحث عن الرمز والمعبود للالتفاف حوله، تحت مظنة إشباع هذا الوازع النفسي، حتى وجدنا الظاهرة تمتد إلى الإنسان باعتباره إنسانا، له فكره وملكاته وقدراته وإبداعه، وله أيضـا تفرُّده وتميزه ومواهبه التى يكمل بها عطاء الآخر؛ فهذه التكاملية تظل شاخصة فى منطق الأشياء، منذ نبَّه أفلاطون إلى روح الوطن وجسده بين الفلاسفة وأصحاب الحرَف اليدوية، وهى التكاملية ذاتها التى تحكى فصولًا من قصة الإنسان عبر صراعه مع الكون والطبيعة، وحتى مع نفسه ومع أخيه الإنسان، لينتهى بإرادته- أو حتى دونها- إلى صناعة هذا التكامل، أو الخضوع لذلك المشترك بمساحاته بكل روافده الحضارية والثقافية والدينية، مع تواصل خبرات الشعوب، وتبادل القيم والمنافع، وتبادل صيغ الدفع والوعى الإنسانى بكل ما يتطلبه من نبذ الخلاف، والاندفاع إلى منطق التلاقى والتقارب.

هنا تتحول فرضية المشترك الثقافى إلى واقع وتجربة، يجب التوجُّه إليها والأخذ بها من قبيل الدرس الموضوعى والقراءة المنهجية، والتوصيف الصحيح للحقائق، بعيدًا عن الانحياز لفكرة مسبقة، أو الانقياد خلف منطق التعصُّب والعنصرية إلا لدى من يرون فى أنفسهم نمطًا وبقية البشر من نمط آخر.

لعل البحث فى هذا السياق يأتى مدعومًا من طبيعة الفكر الدينى ذاته عبر منطلقاته الكبرى الأصيلة من وحدة المصدر، وتوحيد الإله الواحد الأحد فى كل الديانات السماوية إلا ما ورد من باب التجاوز أو الافتراءات، وهذه لها شأن آخر، ولها سياق مختلف على غرار ماورد فى المذاهب -وليس الأديان- من باب الثنوية، أو الشرك فى الألوهية المطلقة، تلك التى انتهت إليها الفطرة القويمة للبشر فى عبادة الخالق وليس المخلوق، الذى لا طاعة له فى معصية الخالق الأعظم جل شأنه.

فى عباءة الإسلام دعوة صريحة إلى وجوب الإيمان بكل الرسل والرسالات "لانفرِّق بين أحد من رسله"، وهو استكمال الإيمان بالله وكتبه ورسالاته؛ الأمر الذى يجعل الإسلام بابًا واسعًا لطرح قضية المشترك الثقافى فى دعوته للإصلاح والأخوة والمساواة، والتكافل والتكامل، والشورى ... إلخ.

فى عباءة الثقافة الإسلامية، ظهرت تجليات هذا المشترك الذى اندمج فيه العربى مع أخيه الخوزى مع البخارى مع الخوارزمى مع الجرجانى دون تفرقة، ودون اعتراف بحدود الإقليم والمكان، ولا حد النشأة والميلاد، فكانت الثقافة هى البوتقة الجامعة بين العرب وكبار مثقفى الأمم المشاركة فى بنية منظومة حضارتهم، على غرار ما ظهر لدى ابن سينا والرازى والإدريسى وابن الهيثم وابن النفيس وابن حيان وابن رشد والكندى والفارابى وابن خلدون وحازم القرطاجنى وغيرهم من أساطين الفكر الكبار، الذين صنعوا المشترك إنتاجًا وإبداعًا، ثم قاموا على نشره وتوزيعه تأثُّرًا وتأثيرًا فى ظل منظومة حركة الترجمة، وتدوين علوم الأوائل، وقد تجاوروا فى دار الحكمة منذ أنشأها الرشيد، ونماها من بعده المأمون فالتقى العربى والهندى والفارسى واليونانى والسريانى فى سياق المشترك الإنسانى فى أدق صوره.

إذا كان المشترك يمثل المسعى الحقيقى لتبادل الوعى الإنسانى وتجارب الشعوب والأمم، فهو المنطلق الذى دفع عالمًا مثل الجاحظ -مثلًا- إلى البحث فى درجة التميُّز بالفصاحة لدى العرب، والسياسة لدى الفرس، والحكمة لدى الهنود، فكان لقاؤهم مدخلًا إلى صناعة التواصل وتكامل الخبرات فى سياق المشترك العقلى والوجدانى قبل أى تصور آخر للتصادم أو الصراع، أو محاولات القهر والظلم والاستبداد؛ فالأصل فى الأشياء هو ذلك الواقع الإنساني، الذى لا يعرف الضفاف إلا من خلال تلك الشراكة الفاعلة بين قدرات البشر، وما يصدر عنهم من فكر وعلم وثقافة وإبداع، وحتى الحلم المستقبلى يدخل فى هذه الدائرة الواسعة وعمق ذلك السياق الإنساني، فهل آن لنا أن ندرسه بوعي، وأن نمتلك من الآليات والجهد ما يقدم فيه الجديد المتناغم مع معطيات الفترة وإيقاع المرحلة!

٥

التغيير : هل يمتد إلى جوهر القانون الدولي

حين يمتد التغيير إلى جوهر القانون الدولى ليتحول إلى سطوة القوة أو هيمنة الطغيان.. فهذا يعنى دمار منظومة القيم الحاكمة لهذا العالم، وهنا تتجلى أسوأ صور المرحلة بكل ما تحمله من مشاهد التحول، ومخاوف المستقبل.

حين يطّرد التخويف والتهديد، وحين تختلط الأوراق، فتُكمم الأفواه، وتُسكت الأصوات حول المساس بالمحتل أو حتى تجريم جرائمه البشعة تحت ستار معاداة السامية، فهذا يعنى قمة الإرهاب الفكري، الذى لم يدُر بمخيلة أى مثقف جاد فى التعبير عن رأيه .. وحين تحتل الأرض، وتنتهك الحرمات، ويُقتل الأطفال والنساء، وينتشر التخريب والدمار دون رادع من قانون أو تخوُّف من محاسبة أو عقاب؛ فهذا يعنى الردة إلى عصر الاستعمار البغيض، بكل ما يلفه من قانون الغاب إن كان للغاب قانون أصلًا !!

وحين تمتهن كرامة الأبرياء، ويمثل بالجثث، ويقتل الضحايا بلا جريرة، ويفتقد أمن المواطن والوطن أمام بلطجة القوة وشراسة الطغيان، فهذا يعنى تغييب - كل التغييب - لمنظومة حقوق الإنسان على هذا الكوكب البائس إلا من قبيل التشدق أو التجمُّل أو مجرد الادعاء.

يبقى من حق هذه الأمة أن تطالب بتغيير صورتها فى ثقافة الآخر، كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا، وهذا التغيير له مداخله ومصادره وضروراته، التى عرضنا بعضًا من جوانبها ومكوناتها.

تبدو الحاجة ملحة إلى صناعة هذا التغيير بإلحاح وواقعية، حتى من خلال شراء ساعات إعلامية، تذاع فيها قضايا الأمة فى إطار من الحيدة والموضوعية والشفافية، وبعيدًا عن التهويل أو التهوين أو المزايدة.

ثمة مدخل نشر الكتب وترجمتها إلى كل لغات العالم ـ بقدر المستطاع والمتاح ـ لبيان طبيعة المشترك بين الثقافات، وفى إطاره تطرح حقائق التاريخ، وتبرز توجهات القوانين، مع طرح الرؤى والأفكار الحاكمة، وإدانة هواجس الطغيان والعنف، وفضح محاولات التلاعب المهين بحق الإنسان حتى فى إطار التشدق بضمانات حرية التعبير بالرأى والكلمة !

وثمة مدخل واجب ومواز حول وجوب المطالبة بحماية المعتقدات والمقدسات والثوابت؛ مما قد يصيبها من جانب المعتدى من طعن أو سب أو مغالطات أو استهانة أو تحقير، فهل حصلنا على حق مقاضاة العداء للإسلام وللمسلمين وللعرب وهم من الساميين!!

من حق المنابر العربية، ومن واجب الجمعيات والهيئات والمؤسسات أن تنطلق بجدية وعمق فى استغلال أقل مساحة ممكنة للتعبير عن الحق، وكشف جوانب الباطل وأبعاده، دون توجُّس أو تخوف من أهوال ضرر أو قلق لاحق، وبعيدا ـ أيضًا ـ عن منطق الفزع أو الترويع من جراء صراحة القول أو نتائج التعبير الحر عن آلام الواقع البغيض وسلبياته، بما يشهده من تجاوزات بغيضة.

من واجب المنابر العربية أن تستدعى تاريخها لتتأكد من وحدة مصيرها، الذى ينطلق أساسًا من وحدة الأصول واللغة، والإدراك لطبيعة التوحد الفكرى والوجداني، وقضية المصير، وقضايا المستقبل بكل توقعاته السالبة والموجبة على حد سواء.

من المتوقع أن تصدر مشاهد التغيير وتنطلق عن جسارة وأصالة واقتدار، لاسيما إذا كانت توجُّهات الواقع تشير دائمًا إلى الأسوأ بما يستدعى إعادة صناعة

وحدة الفكر وتأسيس صناعة مشروع قومى لا بديل عنه، أبدًا فى الاتجاه المضاد لمنطق التشرذم أو التشتت والانقسام، مما يجب تجاوزه، والخلاص منه، ضمانًا لسلامة التعامل مع الحدث العصرى بشكل علمى وأدوات صحيحة.

من المرتقب أن تتبارى الأقلام الشجاعة فى الدفاع عن حقوق المستضعفين فى الأرض والأبرياء فى الأوطان، والوقوف فى خندق واحد مع حق الضعفاء، دون استجابة لمخاوف الضغوط وإملاءات القلق التى تتربص بها تحت أى ستار.

من الأفضل لهذا الوطن أن تنتهج مجموعة مثقفيه وجهة واحدة صريحة وأصيلة تعيد إليه حقوقه فى الأرض وتزيل مهانة الاحتلال، وتسترجع له علو المكانة على النحو الذى تمتع به عبر حركة التاريخ وحقبه المتلاحقة دون خوف أو وجل، انطلاقًا من احترام عطاءاته الكبرى، وتعزيزًا لحقه فى الحياة، على النحو الذى طالما قدَّمه للدنيا كلها سلفًا فى عصور ظلامها.

٦

مواكبة المتغير بشروطنا

ليس من المنطقى أن تتخلف الأمة التى حققت سبقًا حضاريًّا، سجله لها التاريخ على مدار قرون من الزمان، وتحدث بها العلم بالعربية فى كل فروعه عبر الطب، والكيمياء، والهندسة، والصيدلة، والرياضة، والفلك وغيرها من العلوم الطبيعية والتجريبية، إلى جانب ما حققه فى حقول العلوم الإنسانية عبر كبار الفلاسفة، وعلماء الاجتماع والتاريخ، مع فيض الإبداع فى الأنواع الأدبية المختلفة التى ارتقى فيها البيان العربى بصورة ملموحة ومتميزة.

ولكن الأحداث الجسام وآثار الهجمة الاستعمارية الشرسة ألقت بظلالها المؤقتة العارضة على أبناء الأمة ممن أفلت عنهم الأضواء، فأسلموا القياد للغرب الذى تقدم علميًّا وتكنولوجيًّا، لاسيما أن التطورات قد زادت فى السنوات الأخيرة بشكل مذهل من خلال تحقيق إنجاز كل يوم، فبات من الواجب محاولة اللحاق بالركب، ومحاولة تجاوز مرحلة الركود والجمود العلمي، مع الأمل المتجدد فى استعادة جزء من مشهد النبوغ والتفوق التى حققها الرواد والشوامخ، وبفضلها سادوا العالم شرقًا وغربًا.

من هنا تأتى ضرورات التغيير لاستيعاب المتغير العالمى فهمًا له، ووعيًا به، وإفادة منه دون عنصرية أو انغلاق، ودون استسلام للضياع، أو استشعار الفقد، ودون التبعية المطلقة التى قد تفقدنا الهوية أو تهدد منا الكيان، لاسيما إذا ما استطعنا إيجاد مزاوجة هادئة بين القدرة على مواكبة المتغير، والثقة بالذات، مع استدعاء الموروث حوارًا وجدلًا وتجديدًا وابتكارًا وإضافةً، ومعاصرة.

هذه المعادلة التى تبدو من حيث الظاهر صعبة ومعقدة، قد تحتاج كثيرًا من سعة الأفق ووضوح الرؤية، مع الانطلاق إلى فهم الآخر ترحيبًا بكل عطاءاته، طالما امتلكنا حق الاختيار، أو وظفنا حرية الانتقاء مع القدرة على الانتخاب لما يتسق مع أصولنا وجذورنا، دون انشطار الذات أو انقسام النفس، أو الاقتراب من غياهب التهميش أو التغييب.

فى ظل هذه الشروط وما يشبهها من تصوُّرات، تظل مواكبة المتغير العالمى أمرًا مطروحًا ـ إلى حد الضرورة ـ فى مرحلة تقاربت فيها كيانات العالم وتلاقت، ربما بحكم التطور الهائل فى ثورة الاتصالات والمعرفة لنقل الخبر والفكر والإبداع بسرعة مذهلة؛ الأمر الذى ينجم عنه ضرورة التفاعل والتثاقف والاحتكاك والتلاحم، وربما لمواجهة ضغوط الحياة المعاصرة من خلال أكبر قدر من الكفاءة الجماعية، وفى ظل أى من الاعتبارات يظل واجبًا احترام الثوابت الضامنة لعدم ذوبان الذات القومية فى عباءة الآخر، أيًا كان حجم التحديات، أو تباعد المساقات، أو اتساع الفجوة بين المتقدم وغيره.

نحن مضطرون ـ بالطبع ـ إلى الاعتراف باتساع مسافة التباعد المعرفى بين صُنَّاع العلم ومنتجى المعرفة، ومستورديها ومستهلكيها، ولكن الاعتراف لا يكفى لمواجهة أزمة التغيير، أو حتى ضرورة تجاوزها إلا من خلال وعى الذات بجوهرها، وإعادة قراءة الواقع من خلالها، ومحاولة اقتحام المستقبل من خلال رؤى معيارية واضحة تنأى بنا عن مستوى الانكماش، أو الانغلاق، أو التقوقع.

إن الركون إلى ما يصيب الفجوة من اتساع هو فى ذاته استسلام وخضوع، وهو الرضا بالتخلف عن مواكبة ركب الحضارة بما لا يتسق مع طبيعة الشعوب الأصيلة التى كان لها دور حضارى عظيم، صحيح أنها قد تكبو حينًا، ولكنها سرعان ما تتجاوز الكبوة إذا استيقظ شبابها فانخرط فى سلك التقدم بجسارة واقتدار، وهذا ما تسعى إليه المؤسسات العربية الآن فى تطوير آليات التعليم ومناهجه، وإعادة النظر فى صيغه وأساليبه، وصولًا إلى تشكيل العقل الناقد،

والوعى المتجدد، والذهن المتفتح، والقدرة على التحليل والابتكار والتجديد، وعلمية مناقشة القضايا، وطرح الأفكار دون انسياق وراء كل ما هو منقول إلا لفائدة جادة من نقله، أو وعى كاف به؛ الأمر الذى يجب ـ بالضرورة ـ أن يتجاوز مراحل الاستظهار والحفظ والتلقين، دخولًا إلى عالم الحوار من جانب، مع تعميق القدرة على الاستيعاب الصحيح، وإجادة إنتاج العلم والمعرفة من جانب آخر.

هنا تكون أطراف المعضلة قد اكتملت، وتلاقت أركانها بدلًا من اتساع الشقة بينها، وهنا ـ أيضًا ـ يبدأ الانصهار الحقيقى مع حقائق المتغير العالمي، دون قهر أو إجبار خارجي، بقدر ما ينطلق من الاندفاع الذاتي، والمتطلب الداخلى الهادف إلى مواكبة كل ما هو جديد تقديرًا لصحوة العقل العربي، وعودة الوعى بطبيعة التغيُّر منهجًا وسلوكًا وقيمةً ومحتوى، دون الوقوف عند شاطىء الاستهلاك وضفاف الاستيراد بكل ما يؤديان إليه من تقهقر أو تراجع، وانهزام فى عالم لا يرحم الضعفاء، ولا يعنيه انتظار مَنْ تخلَّف عن اللحاق بالركب !



التوسع فى استيعاب دوائر المشترك

يتطلب منا الانفتاح على فكرة الآخر الاندماج فى باب التثاقف والتلاقى وتبادل الخبرات وتراكم المعارف، والإفادة من المنهج والأدوات، إلى جانب تجاوز الفجوة الحقيقية التى قد يدعمها المتغيِّر سلبًا أو إيجابًا بين المتقدم والمتخلف من شعوب الأرض.

انطلاقًا من هذا المفهوم تزداد أهمية قراءة المشترك بمعناه الإنسانى العام، وهنا تلعب العلوم الإنسانية والاجتماعية دورًا مهمًّا وجديدًا فى تأمُّل التاريخ، لاباعتباره ماضيًا فحسب، ولكن بوصفه سياقًا بشريًّا، يضطلع بمهمة توثيق الفكر والإبداع من جانب، وينطلق ـ بطبيعته ـ إلى قياس الواقع ورؤية المستقبل من جانب آخر.

هنا تزداد وتتأكد قيمة قراءة المشترك، ويتكشف البحث عن مفرداته، اتساقًا مع تفعيل لغة التعاون الثقافى وتعزيز مجالاته بين الشمال والجنوب، مع تجاوز عقدة الإحساس بالفقر الاقتصادي، الذى قد يعوضه الغنى الفكرى والعقلى مع متابعة موجة التميُّز والانطلاق الجاد إلى المشاركة الفاعلة فى صياغة المتغير، بعيدًا عن اللامبالاة أو الانهزامية، أو التعصب والانغلاق.

لعل البداية الحقيقية للبحث فى عمق المشترك ومجالاته وتحليل آلياته تنطلق ـ أساسًا ـ من تقدير دور الجامعات فى ظل تأصيل المفهوم الجديد لدورها المجتمعي، إلى جانب دورها الأكاديمى بشكل غير نمطي، حيث يستطيع البحث الجامعى الموضوعى أن يؤسس لمنظومة ذلك التعاون المتوقع بين الشعوب، لاسيما إذا امتلكنا

ـ وهذا حق ـ زمام الحوار بشكل فعلي، بعيدًا عن التصادمية ومنطق الصراع، وهو ما كان شأن ثقافتنا دائمًا فى صيغ انفتاحها على الدنيا، دون تحفُّظ أو مزايدة أو استعلاء أو تجاوز.

وحين نشترط الدور الجامعي.. فمن قبيل الاطمئنان إلى طبيعته النوعية من حيث الجدية والاستنارة، وإعلاء قيم الوعى الإنسانى والقومي؛ ومن حيث الحيدة والموضوعية وصحة المنهج ودقة النتائج، مما يجعل التعاون منظومة عمل لها قوامها وأصولها، ولها ـ أيضًا ـ مداخلها وأساليبها الصحيحة، كما يظل للأداء الجامعى ثقله وتميزه من حيث انطلاقه من بيوت الخبرة والاستشارة بعيدًا عن التشويش أو التشويه فى أى من صوره أو أبعاده.

تبدو الدراسة واجبة لكل تجارب الأمم والشعوب، وجوبها فى صناعة نماذج التعاون الأممى الحقيقى باعتباره مشروعًا إنسانيًا رحبًا، على غرار ما نتخيله ونحلم به ـ عربيًّا ـ من إيجاد سوق عربية مشتركة لها ـ أيضًا ـ أصول ومقومات فكرية أصيلة وراسخة، ولها ـ كذلك ـ أرضية قوية تنهض على أساسها أمام التحديات والتكتلات الدولية فى عالم لا يعترف بالتفكك، ولا يعنيه موقف التشرذم أو التفتت إلا فى الافتئات على حقوق الفقراء، وزيادة الفجوة بينهم وبين الأغنياء.

تبدو الدراسة ضرورية وواجبة حول وجوب الإفادة من خلاصة تلك التجارب، وصولًا، إلى نموذج أمثل فى صناعة المعرفة، وإنتاج الفكر، وتجاوز منطق الاستيراد والاستهلاك تحت مظلة البحث عن موقع متجدد تجدُّد القيم المستحدثة، وانطلاقًا منها، وبناء عليها دون تراجع أو تردُّد.

تحليل صور التعاون المحتملة والقائمة والممكنة، ضرورة مرحلية، مع التوسع فى خلق مجالات واسعة ومساحات أكبر لإفساح المجال أمام المتغيِّر الاقتصادي، وما له من جذور وأصول فكرية وتداعيات مرحلية تطرحها نظرية سوق العمل، وتتطلبها مجالات التوظيف، وتدعمها مهارات الانخراط فيها، وامتلاك الأدوات، مع التسلح بالقدرات الداعية إلى اختراق منظومة التقدم دون توقف.

هو باب الاجتهاد حين يُفتح على مصراعَيْه لتلقى كل الاجتهادات من خلال البحث عن التميُّز والابتكار، والدفع إلى التفكير والتحديث والتطوير، والأخذ بكل ما هو جديد عن قناعة واختيار ووعى وصدق تجربة، مع تعزيز تجديد الموروث وتحديثه فى موازاة تأصيل الحديث، ومنحه القدرة على البقاء، إلى جانب ما يتميز به من مرونة وتجدُّد باعتباره جزءًا لا يتجزأ من عطاءات الواقع ومنجزاته، وهو ما يقود - بدوره - إلى رسم خريطة العمل المستقبلى على أسس أكثر وضوحًا.

رابعًا : نحو مستقبل الحوار الثقافي

١- في إطار العام والمطلق

٢- وجوبية ثقافة الحوار

٣- موضوعية الحوار النقدى والثقافى

٤- فى سياق ثقافتنا العربية الإسلامية

٥- الاتجاه نحو مستقبل ومستوى الرؤية

٦- تقويم ومكاشفة

١

فى إطار العام والمطلق

تحتاج النظرة المستقبلية فى حوار الثقافات إلى الدعوة المفتوحة، أمام صيغ الفكر وصوره، إلى محاولة البحث عن القاعدة المشتركة على المستوى الإنساني، لاتخاذها مدخلًا لتخطِّى الخلافات والصراعات المزعومة ـ أو المصطنعة ـ لتحقيق أهداف وغايات مرسومة وموجَّهة؛ ذلك أن الصحيح فى صياغة برامج المستقبل أن يبدأ من احترام موجب القيم الإنسانية التى بثَّها الإسلام ـ مثلًا ـ بين مشارق الأرض ومغاربها حتى صارت الغلبة لفكره عبر حركَتْى التعريب والتعرُّب، حين عزَّز قيم الإنسان الإيجابية، مع الإفادة من كل دروس التفاعل مع الآخر دون قهر له، ولاالتماهى معه؛ بقدر ما هو ممكن من صناعة الجسر الثقافي، الذى يسهم فى تأكيد التثاقف والتواصل، ويؤكد وجود مساحة من تلاقى عقول الشرق والغرب بأمانة وموضوعية، تضمن دعم وتأصيل قيم الحق والجمال، والخير والعدل والمساواة والتآخى بين كل ثقافات بنى الإنسان.

تحتاج النظرة تجدُّد القراءة لأسس الحوار بين الشرق والغرب، وتقريب الفوارق بين الشمال والجنوب تحت مظلة دراسة المشترك حين يحترم الهوية، ويعظم منظومة القيم، ويضمن للثقافات الخاصة حقوقها فى البقاء، مع احترام المشاركة فى ملتقى الثقافات لوضع التصورات فى أطرها الإنسانية العامة، وتحديد الآليات والبرامج، التى لا ينفرد نمط بعينه بطرحها فى غير شراكة الآخرين. وهنا يلزم التحلِّى بالموضوعية، وإعمال العقل المتفتح فى استيعاب إنجازات الآخر، وتبادل المصالح معه، وحتى صناعة المصالحة من خلاله.

من الضرورى فى هذا المساق التنبه والنبيه إلى حقيقة الدور الريادى للمنطقة العربية فى صناعة ذلك المشترك، بحكم طبيعة الموقع والتاريخ، وبحكم قدرتها على التحدُّث مع الغرب وإليه بلغة واضحة، مما يستوجب إعدادًا إعلاميًّا عربيًّا مشتركًا، وبمعنى أدق لعلنا نحتاج إلى صناعة المشترك العربى أساسًا كما كان حاله على مدار حقب التاريخ، مبنيًا على تقارب الرؤى، وتجانس الأفكار من ناحية، وعلى أصول لغوية وعقلية ومصيرية من ناحية أخرى، حيث كانت كذلك الحضارة الإسلامية، منذ فتحت نوافذها على العالم لتراه من رؤية كلية متجانسة من قبيل تحقيق التعارف بين الشعوب، فهى حضارة العلم وثقافة القراءة والتفكر والتدبر، وهى حضارة التلاقى والجدل بالحسنى، وهى ثقافة احترام الشعور الإنساني، لاسيما حين يحترم الدين الحنيف كل الكتب والرسالات السماوية، جاعلًا منها شرطًا أساسيًّا لاكتمال أركان الإيمان.

الاعتراف بأن من يثير قضية صراع الحضارات حاليًا هو صاحب منفعة فى تلك الصيحة، التى يرِّوج لها المغرضون فى الغرب، وهى تدفع دفعًا إلى صناعة المؤامرة، أو حتى محاولة تبرير روح التآمر وغرس الكراهية بين الشعوب؛ الأمر الذى يستوجب تجاهل مثل هذه الأصوات، والانصراف إلى الجادة، والتوسع فى حيِّز العلاقات الإنسانية، والاتجاه شرقًا للتوسع فى جسور الفكر والتوسع فى تأصيل الدور الثقافى والعمق الحضارى من هذا المنظور الإنساني، الذى يجمعه ضمير العالم وحوار الإنسان مع أخيه الإنسان.

لقد تعددت صيغ التلاقى عبر حضارات الشرق القديم وحوض المتوسط، وامتدت الصيغ إلى أفريقيا المسلمة، ومصر، والأندلس والصين، وكان فى ساحات الاتساع ما قارب بين اليونان والشرق، ووحَّد بين أساطين الفرس والعرب، وتحققت ـ يومئذ ـ القيم المشتركة العليا بين الأجناس والأديان دون جناية على صور المخالفة؛ الأمر الذى يدعو إلى شجاعة المراجعة وجسارة القراءة المنطقية للتاريخ، من هذا المنظور الإنسانى المفتوح.

وانطلاقًا من احترام هذا الحق، وتعزيزًا لمنطق التعددية يظل واقع ثقافتنا الإسلامية داعيًا ـ بدوره ـ إلى شيئين :

أولهما : وجوب إقامة جسور تعاون مع الآخر، بشرط اعترافه بحقنا التاريخى فى نشر الثقافة والفكر، ضمانًا للإنصاف وتفاديًا للظلم، أو التجنى على موقع أمة من خريطة العالم.

الثانى : وجوب الاعتراف بالأثر الإسلامى الفعلى فى صناعة المشترك وصياغته بشكل راقٍ بين شعوب الأرض، بدليل صناعة تلك الثقافة على أيدى غير العرب من حيث المولد، ولكنهم كانوا نشأً حضاريًّا إسلاميًّا يعكس الصورة الحضارية المشرقة لهذا الدين.

ثم يبقى من الضرورى الاهتمام بمستقبل العالم الإسلامي، الذى أصبح مطالبًا بتصحيح صورته لدى الغرب، ومن السهل أن يعيدها إلى إشراقة ماضيها فى ظل كل دوائر ذلك المشترك القيمى والإنسانى والدينى والثقافي؛ مع ضرورة تغييب الخواطر البشعة حول الزعم بالخطر الإسلامي، الذى يروج له بعض الإعلام الغربى على حساب تجاهل الحقائق المنوطة بتاريخ الأمة، التى رسخت كل مفاهيم الخطاب الإنسانى الفاعل مع الآخر، منذ خاطبت فيه العقل والوجدان وأكدت عمق النزعة الإنسانية التى جمعت بين كل الحضلرات .والديانات، وأظهرت من مساحات التسامح وصوره ما أسقط الحدود الفاصلة بين الجنسيات والمذاهب والمعتقدات.

٢



وجوبية ثقافة الحوار

لم يعد كافيًا أن نطيل الحديث عن حوار الثقافات، وكأننا مطالبون دائمًا بالدفاع عن أنفسنا أمام الآخر، حين يضعنا – من وجهة نظره- فى موضع الاتهام على عكس مقتضى التاريخ وأطروحاته، أخبارًا وحقائق ومرويات وثوابت.

فمن المؤكد والمفروغ منه أن ثقافتنا التى انطلقت من الأرض العربية – فى فترة امتدادها – دارت حوارًا بين علمائها الأفذاذ، بصرف النظر عن عروبة المولد التى غلبت عليها عروبة النشأة والفكر والتأصيل، فكانت البادية العربية موئلًا لكبار الشعراء المولدين فى عصر الحضارة العباسية؛ مما أصقل منهم الموهبة، وأنضج لديهم الملكة، وعزَّز عندهم مداخل الإبداع.

وعلى غرار ذلك، جاء انتشار العلم العربى على ألسنة أقطابه الكبار، فملأ الدنيا كلها بالعربية التى لم تعلن يوما عجزًا ولا إفلاسًا، ولا سجلت قصورًا أو تخاذلًا أمام استيعاب أى من العلوم التى أصَّل لها من أفذاذ البشرية، أمثال: ابن سينا، وابن الهيثم، وابن النفيس، والرازي، والخوارزمي، والإدريسي، والطبري، وابن حيان، وابن رشد، والكندي، والفارابي، والجاحظ، وابن قتيتة، والغزالي، والمعري، والتوحيدى وغيرهم كثير من قلاع الفكر والإبداع، ورموز الثقافة، وشوامخ العلم، ورواد المعرفة.

ولو افترضنا – جدلًا – أن ثقافتنا – فى فترة المد والازدهار – قد جنحت إلى

أى من صدر التعصُّب أو العنصرية أو مالت – مجرد ميل – إلى الاستعلاء على الآخر لأغلقت على نفسها الأبواب، ولتقلُّص أثرها وحركة تفاعلها، ولما تحولت – بحال – إلى نافذة، تضئ للأرض كل منارات العلم من حدود الصين فى المشرق إلى حدود جبال البرانس غربًا، وبينهما مساحات شاسعة من دنيا العالم القديم تتلقى العلم بالعربية، وتتعلم اللسان العربى لتقيم به علوم دينها ودنياها فى آن، دون انفصام، أو استشعار للدونية ولا كراهية للعربية ولا أرضها ولا فكرها ولا علمائها.

ولا يزال تاريخ الحوار العربى شاهدًا له لا عليه، وإن بالغ المرجفون فى عدوانهم من قبيل الزعم أو الادعاء، أو – فى أحسن الأحوال- مجرد الافتراض من منطق العناد أحيانًا ومنطق الحقد والبغض فى معظم الأحوال، فالشاهد لثقافتنا – بإيجاز – أنها نشأت نبتًا إسلاميًّا سمحًا لم يتعصب لجنس أو انتماء، ولم يفرق بين الأديان والمذاهب والملل، ولم يعرف القهر ولا التدمير لأى من صور إنتاج الآخر فكرًا أو إبداعا، بقدر ما اتسعت ساحتها لتقبل التعدُّدية؛ وهى أساس الحوار الإنساني، فتجلت فى عباءتها كل الأصوات الفارسية والهندية واليونانية، أخذًا منها وعطاءً لها. تأثرًا بها وتأثيرًا فيها دون انكماش أو انغلاق، ودون انحسار أو تقلُّص، فكانت إنسانيتها ورحابتها ومرونتها أساسًا لما تمتعت به من النضج والعمق، والأصالة والتواصل، دون توقف أو انقطاع.

والمسافة بعيدة – بالقطع – بين ثقافة التصادم والصراع، وثقافة التبعية والانهزام، والنمط المضاد من استمراء الاستعلاء والتباهى وتحقير رؤى الآخر؛ الأمر الذى يفرز نوعًا ساميًا من الثقافة أساسه المجادلة بالحسنى بعيدًا عن الغلظة والفظاظة، وبمنأى عن القهر والاستبداد، فجاءت اندفاعات البشر إليه شاهدًا له، دون أن تتحول فى وقت ما إلى شاهد عليه على الإطلاق.

وقبل ختام القول حول ثقافة الحوار يظل من واجبنا – فى هذه المرحلة – أن نتواصل مع موروثنا من المنظور نفسه، حوارًا يستهدف المساءلة والمراجعة والمناقشة

والتجديد والإضافة والابتكار، وفتح مجالات المناقشة والأخذ والعطاء والقبول والرفض دون التماهى والانبهار والدهشة، ودون التحقير والتجاوز فى النرجسية وتضخيم الذات.

نحتاج معيارًا عربيًا أصيلًا يضمن سلامة الحوار وصحة مداخله؛ رغبة فى الإفادة وتحقيق التواصل، بما يتطلب منا أن نضع على أجندة العمل الثقافى محاولة ترسيخ أصول الحوار وأصوله ومقوماته، لا من قبيل التصورات النظرية ولا الفرضيات العامة فحسب، بقدر ما تنطلق من استيعاب روح السلف بما نشره من التسامح والتلاقى والتثاقف دون رفض أو تجاوز، مع الحرص على الإضافة من منظور الجديد الذى يطرحه الواقع وروح المعاصرة.

نحتاج ثقافة الحوار لتكون أصلًا فى تكوين شباب قادر على الاطلاع، حريص على مناقشة ما يقرأ، لعلنا نحقق من خلاله الهاجس القومى فى استعادة تاريخ الفكر الذى نهض على إنتاج الثقافة وابتكار المعرفة متجاوزًا ما نحن فيه من أزمة الاستيراد والتوقف عن حد الاستهلاك مما نأسف له كثيرًا، دون ترجمة الأسف إلى إنجاز جديد يزيل غشاوة استيراد الخبير الأجنبى فى كل شىء، وكأنما نفقد الثقة فى أنفسنا عن التجديد والابتكار فى أى شىء !!!.

يظل التحدى الحقيقى الذى ينبغى ترسيخه فى ذاكرة شباب الأمة مقترنًا بالدعوة إلى إعمال العقل والاجتهاد، والانفتاح على كل ما هو جديد وقديم، قصدًا إلى التأصيل والتحديث، وصناعة المعادلة الصعبة بين الموروث والمعاصر، انطلاقا من الإنصاف والاعتدال والتوازن، وبعيدًا عن الشطط والانشطار والمبالغة والمزايدة.

نتوقع تشكيل النشء على أساس من تعزيز مهارات المرونة والمناقشة والمداخلة والمساءلة، بعيدًا عن القبول إلا للثوابت والمسلمات التى قد يبدو النقاش حولها

مدخلًا إلى الهرطقة، أو إفراطًا فى ضجيج الجدل دون الوصول إلى نتائج مقنعة؛ فالمرحلة تحتاج تأسيس مقومات وأسس رصينة ترسم فلسفة الحوار وآدابه وقيمه ومقوماته وأصوله، استرشادًا بما صنعه كبار المتحاورين من علمائنا الأجلاء فى تأسيس ثقافة العالم من فجر التاريخ الإنساني.



موضوعية الحوار النقدى والثقافى

مطلب علمى جاد على المستوى النظري، وفى سياق الحديث فى المطلق العام، وهو مطلب أكثر تجليًا ووضوحًا فيما شهده مؤتمر مؤسسة الفكر العربى مع مطالع هذا الشهر ١-٤/ ١٢/ ٢٠٠٤ فى مدينة مراكش بالمغرب الشقيق لدراسة أخطر موضوعات المرحلة على المستوى العقلى للأمة، وفى سياق متطلب صحوة الوعى العربي، من خلال رؤى كبار المفكرين الذين أعدوا أوراق العمل والمداخلات والمناقشات حول موضوع " العرب بين ثقافة التغيير وتغيير الثقافة".

بات مؤكدًا أن الشق الأول من العنوان لا غبار عليه؛ طبقًا لوجوب مواكبة العرب لحركة المتغير فى مسار التاريخ الذى كانوا له صناعًا زمنًا طويلًا، ثم وقعوا ضحية أحداث المستعمر وأطماعه فشغلوا بحركة التحرر الوطني، وتوقفت لديهم عجلة الإنتاج الثقافى والمعرفى والتنمية البشرية، وعجزوا حتى عن ملاحظة ثورات التكنولوجيا، فتحولوا إلى مستهلكين ومستوردين، وأصبح مطلوبًا منهم مراجعة ذواتهم ونقد أنفسهم وإعادة قراءة الأشياء من منظور واقعى محايد وموضوعي، بحثًا عن صيغة الخلاص، وصناعة طوق النجاة استمرار من هول الجملة الاعتراضية التى وجب عليهم تجاوزها، والانطلاق إلى استكمال مسيرتهم التى بنى جسورها أسلافهم باقتدار وجدارة، أسسوا من خلالها حضارة أمة وتاريخ فكر إنسانى رفيع المستوى.

ليس صعبًا على أمة تمتلك من الأصالة والتميُّز والتاريخ أن تتجاوز كبوتها

العابرة، وأزمتها المؤقتة، وأن تنطلق إلى استشراف المستقبل من خلال رؤية ونظرية تحرص على إنجازها، ومواقف نظرية تحاول ترجمتها إلى واقع عملي، ودروس مستفادة تترجمها إلى نهضة ومشروع مستقبلي، وإدراك دقيق للمفاهيم، والوعى بحقائق الأشياء وطبيعة الآلية الثقافية، التى تحيلها إلى عتاد وفكر وإنجاز.

وليس صعبًا على أمتنا أن تستعيد قراءة تاريخها، من خلال حفز متواصل إلى استطلاع أفضل ما فيه لإعادة بناء جسور الثقة بالذات، وضمان تواصل الأجيال، مع التركيز على قيمة المشترك الإنساني، الذى جمع معها كل شعوب الأرض فى بوتقة الفكر العربى الموسوعي، الذى حمل من منظومة القيم الإنسانية العليا ما احترم به حقوق الإنسان، وانطلق من خلاله إلى إعلاء شأن قيم الحق والخير والعدل والجمال والإخاء والمساواة بوصفها حقوقًا مطلقة وواجبة للإنسان.

جاء الحوار النقدى والثقافى على مدار أيام المؤتمر الأربعة وعبر قاعات السفراء والوزراء بقصر المؤتمرات بمراكش، ومن خلال التعقيب وأوراق العمل والمداخلات والمناقشات الجادة جاء الأمر كله كاشفًا عن عدة اعتبارات، لها أهميتها وقيمتها ومرتكزاتها التاريخية والمرحلة المستقبلية، ومنها:

١ - وجوب الانطلاق من البحث عن الصالح العام للأمة، والموضوعية فى قراءة واقعها وماضيها دون انفصام، أو تجاوز، ودون مبالغة أو تهويل، أو مغالاة أو تضخيم، ودون تسطيح أو تهوين.

٢- الرغبة الصادقة فى بناء مشروع ثقافى مستقبلي، ينهض بتحقيق احتياجات الأمة فكرًا ووجدانًا، ويحقق جانبًا من الهاجس القومى فى الرِّهان على بناء مستقبل أفضل، ربما يقارب أرصدة الإنجاز التى صنعها العلماء العرب، وصناع المعرفة على مدار قرون طوال تحدث فيها العلم بالعربية.

٣- احترام الرأى والرأى الآخر، وإيجاد مساحات مشتركة من التلاقى والتداخل والتثاقف، وتجاوز تضخم الصوت الواحد؛ مما قد يدعو إلى

الانغلاق، أو الوقوف عند حد الاستعلاء على الآخر، أو نرجسية الذات فحسب، حيث بدا المطلوب التعامل بشفافية وجسارة، بعيدًا عن المخادعة أو المراوغة أو الادعاء والافتعال والزيف.

٤- بناء جسور العلاقات الثقافية بين الشعوب والأمم على أسس صحيحة ومعايير قوية، تضمن لها حقها فى البقاء بعيدًا عن التهميش وضغوط التخويف، وبمنأى عن المساس بمقدرات الهوية والكيانات، وبمعزل عن طمس معالم التاريخ والتراث الإنساني.

٥- وجوب تحقيق الحد الأمثل من الكفاءة والندية؛ حتى نستطيع مجاراة الآخر بأدوات متقاربة أساسها صحة المنهج، ووضوح الرؤية، والتخطيط العلمى الدقيق، وتجاوز ثقافات الكلام والشعار والمزايدة إلى بناء ثقافات الفعل والإنجاز، مع ثقافة المرونة والاعتدال والتوازن، مصحوبة باحترام المشترك الإنسانى بكل ما يطرحه من مؤشرات ودلالات ومساحات وأبعاد، وبكل ما يحققه من إنجازات حضارية راقية.

كانت موضوعية الحوار النقدى والثقافى مدخلا جيدًا وسمتًا عامًا لكثير من صيغ العرض، التى تبارى فيها المفكرون، لاسيما من حسنت لديه المقاصد وصحت النوايا أملًا فى تحديد موقع مناسب لثقافتنا العربية على خريطة العالم المعاصر ومواجهة كل التحديات دون استجابة لروح التقاعس أو الانشطار أو دواعى الإحباط، تحت أى من الظروف أو الأعباء أو المعوقات.

وبقيت مواقف الشرود الذهنى والخروج عن السياق ظاهرة مكملة لأشباهها فى المؤتمرات الجادة، التى لابد أن تُبتلى ببعض المنتفعين أو أنصاف المثقفين ممن يحولون أنفسهم إلى خصوم لثقافتنا – وهم من أبنائها- إما من باب الرغبة فى المخالفة- وهذا هو الأرجح- وإما عن غير فهم لجوهر خصائص تلك الثقافة بكل أبعادها الإنسانية.

٤

فى سياق ثقافتنا العربية الإسلامية

ليس من المبالغة أن نزعم أن الثقافة الإسلامية قد نهضت على أساس الحوار بدليل المطلوب الجدلى المشروط بالحسنى، والدعوة بالحكمة، واحترام الآخر على مختلف انتماءاته العنصرية، وعقائده بدليل ما درجت عليه من انفتاح ذهنى عبر حركة الترجمة من العربية وإليها دون تحفظ أو تعقيد، فكانت كل لغات المرحلة داخلة فى عباءة العربية، نقلًا منها أو إليها دون جمود أو انغلاق، بقدر ما كانت سبيلًا من سبل المشاركة والإضافة والابتكار؛ وهذا هو المحك فى أصول التثاقف والتلاقى بين الثقافات، وهو نفسه الفاصل الحقيقى بين ثقافة حية وغيرها ميتة.

من حقنا أن نفترض ـ على سبيل الجدل ـ ماذا لو كانت ثقافتنا تصادمية أو انطلقت من الصراع مع بقية الثقافات، كما اتهمها أدعياء التنظير الثقافى ؟

لو حدث هذا لأغلقت أبوابها على أبنائها، فلم تعرف الدخيل والمعرب، ولما أخذت وأعطت فى كل فروع العلم والمعرفة التى تجاوزت منطوق التخصص إلى إطار الموسوعية الفضفاضة، كما تجاوزت إيثار لغة بعينها إلى كل لغات المرحلة بين وسيطة مثل السريانية، وبين لغات أصلية لها أرصدتها التى تضرب فى العمق الثقافى على طريقة اليونانية والهندية والفارسية.

لو حدث هذا ـ جدلًا ـ لما استمرت تلك الثقافة على مدار حقب التاريخ تنشر علومها بالعربية، وتشيع مصطلحات علمائها وأفكارهم، عبر جامعات أوربا فى عصور الظلام، حيث بدت قادرة على العطاء بلا حدود أو حواجز؛ قدرتها على الأخذ والتبادل دون

تعصب أو تشنج تحت أى من الظروف؛ الأمر الذى بدت تجلياته أكثر ظهورًا من خلال أمرَيْن :

ترجمة كتاب الشعر، وكتاب الخطابة لأرسطو بقدر ما أتيح للعرب من آليات ومفاهيم اصطلاحية فى مستوى الترجمة بما يتسق وأنماط الإبداع لدى شعرائهم التى اختلفت فى طبيعتها النوعية عن مواد الإبداع فى الشعر المسرحى اليوناني.

والثانى فى ذلك الاندفاع إلى المشاركة فى صناعة المنتج الثقافي، دون نظر فى طبيعة المَوْلد بقدر التحول إلى طبيعة النشأة والتكوين، حتى ذابت الحدود الفاصلة بين الأجناس والأديان تحت مظلة القبول والتسامح فى الفكر الإسلامي، فكانت إسهامات الرازى والبخارى والجرجاني، وغيرهم من أبناء وسط آسيا موازية لإبداعات لشعراء العربية الأقحاح، وكان قبول ثقافتنا لجهود المسلمين دون امتهان لعالم، أو تحقير لمنتج ثقافى تحت أى من مقومات الاضطهاد أو العنصرية، أو التفرقة، أو الاستعلاء.

من هنا يأتى البحث فى مستقبل الحوار بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات، باعتبارها مؤسِّسة لهذا الاتجاه، امتلكت مفاتيحه، وتمكنت من أدواته، وتستطيع أن تصنع منه نسيجًا متجددًا يتسق مع إيقاع المرحلة، ويصدر عنها من جانب، ويستطيع التواصل والاستمرار وتجديد ذاته مستقبلًا من جانب آخر.

تبدأ آليات المنتج الثقافى فى الظهور، من خلال عدة اعتبارات أساسية :

١ - إعادة قراءة واقع مجتمعاتنا الإسلامية بشفافية واقعية، بعيدًا عن الانزعاج أو المبالغة، وبعيدًا أيضًا عن المغالاة والمغالطة، ودخولًا هادئًا إلى دائرة الحيدة والموضوعية، بما يستدعى وجوب تصحيح صورة المسلمين ـ وليس الإسلام ـ لدى الآخر، مع رفض اعتداءات الآخر على حقوق الإنسان تحت زعم نشر الحرية، أو فرض رياح التغيير بالقوة، أو تحويلها إلى عواصف عاتية تستهدف اقتلاع الجذور، أو المساس بالأصول، أو تهميش القوميات، أو

التلاعب بالمقدرات والكيانات، أو الاستخفاف بالثوابت والمقدسات .. وهنا يجب احترام وحدة النوع والتعددية فى آن؛ انطلاقًا من دعم مفهوم " المشترك الإنسانى " وتقدير عطاءاته الحقيقية فى التاريخ البشري، وانتهاء إلى قبول التعددية التى تنم عن وعى وفهم وقبول لكل ما ينتجه الآخر من باب التبادل النفعى من ناحية، والتلاقى الإنسانى المطلق من ناحية أخرى.

٢- التفكير العلمى الجاد فى ثنائية التقدم والتخلف، وفى توزيع الأمر جغرافيًّا بين الشمال والجنوب، وزمنيًّا بين الواقع وتوقعات المستقبل؛ الأمر الذى يتطلب توظيف الجهود فى اتجاه واحد، لا بديل له طبقًا لمعيارية محورية تنطلق من ثلاث منطلقات :

- إعادة قراءة الماضي، لا من منظور التباهى والتفاخر، ولا من بواعث الاستعلاء أو الركون إليه، بل من منطلق بناء جسور الثقة بالذات والأدوات والقدرات، واتخاذه ـ أى الماضى ـ متكأ للحضور القومى إيمانًا بالتواصل والاستمرارية، والتحول من ثقافة القول إلى ثقافة الفعل والإنجاز، ومن ثقافة التذكُّر إلى ثقافة الإفادة والاعتبار بالدرس الواعى والمفصل فى بناء رؤى المستقبل.
- المقاومة الهادئة والمتأنية لحالة التردِّى التى تعانيها الأمة، مع الاعتراف بطبيعة كبْوَتها الطارئة، باعتبارها مرحلة عارضة وجملة اعتراضية لا تقف حائلًا دون حركة الاندفاع إلى الأمام، ولا تدعوها للتراجع أو الانكسار، لاسيما إذا قيست أزمة الفترة بكثير من الأزمات، التى شهدتها الأمة وقاومتها، وانتصرت خلالها على كل خصومها، من لدن الثورات التدميرية فى حقب التاريخ من الزنج والقرامطة، إلى تدفُّق جحافل التتار، إلى تدفُّع موجات الصليبيين، إلى الاستعمار الأوربى الشرس فى القرنين التاسع عشر وأوائل العشرين، إلى حركات التحرر الوطنى والقومى التى أعادت للثقافة العربية هيبتها وصلابتها وقوتها، دون انقطاع أو تراجع أمام كل محاولات التغريب فى الأرض العربية.

• وضع الشروط والمعايير العلمية المحايدة فى قراءة الموروث، لا من قبيل السيطرة أو الهيمنة أو حتى الاستكانة أمام مشاهد الماضى عطاءاته، بل من قبيل صناعة الحوار معه، والجدل من خلاله، والإضافة إليه، والمناقشة حوله، والاستفسار عن أسراره ومكوناته، قصدًا ـ بذلك ـ إلى إحيائه من منظور عصرى متجدد، يقربه إلى النشء، ويؤسس لمفاهيمه دون اغتراب أو عزلة؛ الأمر الذى يتطلب جهودًا قومية متكاتفة تنهض على أساس من المرونة فى مواجهة تحديات العصر، وتتجاوز مسألة الانشطار الفكرى بين منطق المعاصرة والإحياء، فكلاهما ينتهى إلى هدف واحد، منطلقِه الإيمان بحرية الفكر الذى تقبل تعرُّب الشعوب والأمم، ودخولها عن رضا وقناعة فى عباءة الثقافة الإسلامية بكل ما ارتدته من أثواب الرحابة والعمق والاتساع والمرونة.

٣- الاهتداء بحقبة السلف الصالح فى سياق التأليف والإبداع فى كل العلوم الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية والإنسانية، إلى جانب ما أحرزته فى العلوم الطبيعية والتجريبية، وما يلفها جميعًا من ذلك التداخل الرائع بين قضايا العلم والإيمان، دون اعتبار الدين حجر عثرة فى سبيل التقدم، والاندفاع تجاه الأفضل؛ خاصة إذا تطلب هذا الدين إعمال العقل من خلال التفكُّر والتدبر فى أسرار الكون، والاندفاع إلى احترام السمو الأخلاقى والوجدانى البشرى تحت مظلة حقوق الإنسان فى الحياة والحرية والمساواة والإخاء، وهى أيضًا حريته فى اختيار العقيدة، وإقامة العبادات والشعائر فى حرية تامة، دون خوف أو قهر أو استعباد.

٤- تحديد مفهوم الإصلاح وبواعثه وآلياته فى مساق إحياء علوم الدين والدنيا، دون انحياز أو تعصُّب؛ فمن حق كل شعب وكل أمة أن تأخذ بها تراه صالحًا لبناء أجيالها، ورسم سياسة حياتها واقعًا ومستقبلًا فى ظل شراكة حضارية واقعية وواعية صنعها الفكر الإسلامى وأصَّل لها فى اعترافه بالآخر، واحترام الحدود الفاصلة بين البشر حسب مبلغهم من العلم والتقوى، وهو ما انتهى إلى احترام المشترك الإصلاحى فى تاريخ الأمم، والإفادة من تجارب الآخر

مكانًا وزمانًا؛ فمن حيث المكان يمكن الإفادة من تجارب الأمم الناهضة من قصة كفاح اليابان أو الصين وغيرهما، ومن حيث الزمان يمكننا الإفادة من ثراء التجارب التاريخية التى صمدت فيها أمة الثقافة وثقافة الأمة، فلم تتحول يومًا إلى ثقافة تاريخية ولا رموز غامضة ولا طلاسم مستغلقة، بقدر ما ضمنته من المرونة والتجديد فى كل تيارات الفكر ومناحيه، وعلى رأسه كان تجديد الفكر الديني، وتجديد الخطاب الإنسانى بما يتسق وإيقاع حركة التاريخ مع توالى الحقب، وتلاحق الأحداث، وتراكم المعارف، وتوالى التحولات الإنسانية.

٥- عدم التنازل أو التوقف عند حد القول فى برامج الإصلاح، مع محاولة تجاوز الجدل حولها؛ باعتبارها ضرورة مرحلية، تستوجب الأخذ بالأسباب، وتتجاوز حد الانشغال بالتفاصيل إلى قراءة أسس التفاعل مع دراسة تداعياته عبر مشروعات التحديث والتغريب، والهوية الحضارية والثقافية، وتجاوز إرباك المصطلح وضبابية الرؤية إلى بناء مواجهة صدمة الحداثة بقوة وجسارة، دون خوف على الهوية القومية أو الدينية أو الشخصية، إذا أخذنا بمبدأ الحصانة والقدرة على المواجهة، أو استطعنا تحويل الحداثة لخدمة التراث وحمايته، دون تعميق هوة الخلاف بين المنطوق الحداثى والتراثى فى صورة طرفَى خصومة، إذ الصحيح فى الخروج من أزمة الازدواجية صناعة المصالحة الثقافية بين القديم والعصرى بتحديث الموروث مقابل تأصيل المستحدث، وهذا يكفى لصناعة مستقبل أكثر وضوحًا.

٦- الشجاعة فى مواجهة الذات قراءةً ونقدًا وتحليلًا، وإعادة النظر فى صياغة مشروع الخطاب العربى العصرى بكل أبعاده : التربوية والأخلاقية والشبابية والإعلامية والتثقيفية والدينية، مع ضمان الحد الأمثل من التواصل المعرفى والتجانس الفكري، والتلاقى الثقافى بين الأجيال، وهو ما لا يتأكد إلا من خلال تعزيز صيغ الحوار، وتعظيم دورها فى قراءة التراث من داخله وخارجه ـ على السواء ـ عبر مناهجنا والإفادة من مناهج الآخر، فى سياق النسبى

وتجاوز المطلق، مع احترام الثوابت فى سياق المتغير، وتجاوز التخوُّف من القفزة المعرفية والطفرة الثقافية، التى قد تمثل ثورة أو مدخلًا جادًّا إلى الاندماج فى منظومة التحديث والتطوير الكبرى، التى تعتبر سمة من قسمات المرحلة ومتطلباتها، وليست من قبيل الترف و الوجاهة.

٧- الأخذ بمنطق التحليل المنهجي، وتجاهل عشوائية الفكر، أو الاندفاع الجاد من خلال إرادة التغيير فى ظل ممارسات إنسانية واعية، تحترم منظومة القيم، وتتحول إلى ثقافة جماهيرية ومجتمعية، أكثر منها ثقافة نخبوية أو سلطوية، لعلها تحقق طموحات المستقبل، وتبنى مرتكزاته الأساسية فى ظل خطوط التنمية وتحقيق العدالة، واستكمال التحرر الوطنى والقومى فى الانفلات من الهيمنة والتبعية، وتنمية قضية التجديد الحضاري، دون استشعار الدونية أو مركب النقص لمجرد التخلف ـ مؤقتًا ـ عن مواكبة أحدث تيارات العصر المتسارعة، ولا ننسى حاجتنا الماسة ـ هنا ـ إلى الانخراط الفعلى فى منظومة التحديث أخذًا بآلياته، وفهمًا لتوجهاته وأبعاده انشغالًا بالانخراط فى قاطرة التنمية البشرية، ودعمًا لاحترام الثوابت والأصول واحترامًا للخصوصية الثقافية لكل أمة، أيًا كانت طبيعة ثقافتها التى تظل جزءًا لا يتجزأ من شخصيتها.

٨- تحديد موقف ثقافتنا من شروط التغيير، بدءًا من إمكانة تفعيله، وتحويله إلى مشروع حقيقي، وإنجاز فعلى على أرض الواقع، نمتلك آلياته ومداخله ليقود إلى مستقبل أفضل، شريطة أن ينطلق من الداخل مستهدفًا ـ أساسًا ـ تعميق فكرنا العربي، مع احترام الوعى الجمعي، وتجاوز منطق التشرذم والانقسام والتناقض والمزايدة، إلى محاولة تشخيص الحالة العربية الإسلامية لا من قبيل التباكى أو الاكتفاء بالرصد والعرض، بل الانطلاق إلى طرح خطط زمنية للإصلاح الحقيقي، وصياغة التحولات والبرامج الجادة فى ظل احترام المرجعية، وصحة الرِّهان على إنجاح الهاجس القومي، وإعادة النظر فى

ترتيبات البنية الثقافية، وتعزيز فعاليات ثقافة المعرفة والانتهاء والتطوع، مع ثقافة المنهج والحوار وتجديد عطاء العقل العربي، مع تكامل المرحلة والتكامل المؤسسى فى رسم خطط المستقبل، من خلال رؤى وأفكار ومناهج متجانسة.

٩- الشجاعة فى مواجهة الاتهام والافتراءات الباطلة، ومنها ـ مثلًا ـ ما أُلصق بالإسلام من صور الإرهاب أو التخلف، وهو ما ليس منه بالفعل ـ بل هو منها براء ـ إذا أخذنا بموقعنا كأمة قادرة على البقاء؛ لأنها لم تخرج من دائرة التاريخ، ولن تخرج منه تحت أى من الضغوط، بقدر ما تخضع لقوانينه التى تستطيع التعامل معها بمرونة واقتدار، إذا أجادت إعادة اكتشاف مناهج التغيير وحدوده ومتطلباته، والعودة إلى قراءة الذات، وتكريم الإنجاز الإنساني،وإدانة ثقافة التخويف والترويع والإرهاب، التى ينتهجها الآخر بلامبررات إلا مجرد استعراض القوة، أو محاولة وتغيير موازين الحق والباطل، أو نشر ثقافة القتل والإبادة والإفساد والتخريب والتدمير، دون حساب لتأطير محورَى الخير والشر إلا من قبيل الأهواء والأمزجة، والاندفاعات الحادة إلى الغزو الثقافى الهادف ـ أحيانًا ـ إلى إسقاط ثقافتنا من الحسبان، أو فرض نموذج مختلف أو برنامج قهرى أو ما يشبه ذلك من إيهامنا بما ليس فينا من تعصُّب أو تخلُّف؛ الأمر الذى يتطلب ـ بدوره ـ وتأمل المقاصد العليا من وجوب العودة إلى كلمة سواء لإعادة جسور التلاقي، التى أسَّس لها الإسلام منذ حوَّل العرب من قبائل إلى أمة تمتلك المفاتيح الحاكمة للإصلاح وصحة التوجيه، دون تناقضات بين ما هو وطنى وقومى وإنسانى وإسلامى، إذا تجاوزنا النعرة القُطْرية التى شكلتها الهيمنة الاستعمارية تمهيدًا لاحتلال الأرض والفكر تحت دعوى الحرية الزائفة،أو التجمُّل المفتعل أمام المستضعفين والأقوياء بنشر الديمقراطية فى مجتمع كان يعرف جيدًا مقومات النهضة وصناعتها عبر منطلقاتها الجمعية والعلمية معرفته بمفاتيح المستقبل ومواجهة التحديات، والمشاركة فى التنافسية، وإدراك الطبيعة النوعية للحدود الفاصلة بين الحرية والفوضى، بين الحوار والصراع، بين الوحدة والتعددية،

خروجًا من ذلك التيه العميق برؤية وموقف وخطة عمل تعزز دور الأديان، دون مسخ للحقائق، أو تشويه للثوابت، أو التشويش حول الحقائق، بقدر ما هو مطلوب من تعظيم ثقافة الإنتاج، وعمق المنهج وتحديد المصطلح والمفاهيم بعيدًا عن الانحياز أو التزييف، واحترامًا لضوابط العقل الصحيح، الذى يعيد إلى الأمور ما قد يبدو معوجًا منها فى اتجاه مضاد.

١٠- الاحتكام إلى التاريخ والواقع، لا باعتبار التاريخ ماضيًا مقطوعًا؛ بل باعتباره مدخلًا وجسرًا يتواصل مع الواقع، وبالتالى فهو بوابة المستقبل بما تفتحه من متطلب الثقة بعيدًا عن استمرار روح العداء والمؤامرة، أو تضخيم ساحة الخوف من خطط الآخر، التى يمكن مواجهتها بحصانة الثقافة ومنعتها، إلى جانب تقويتها ـ توفيقًا لا تلفيقًا ـ دون تصادم أو عدوان أو انحسار فى ظل نظرة أحادية تعجز ـ غالبًا ـ عن تحقيق التقدم.

٥

الاتجاه نحو المستقبل ومستوى الرؤية

لعل الحوار المنهجى ينتهى بنا إلى الخلاص من تداخل دلالات المصطلح، ومحاولة الخروج من دائرة الفوضى، وخلط الأوراق بالوصول إلى طبيعة الحدود الفاصلة بين مفاهيم الصراع والتصادمية، وصيغ الحوار والبحث عن المناطق الآمنة فى خريطة الفكر الإنساني.

ولعل الاندفاع المنهجى أيضًا نحو رؤية المستقبل يبدأ : من وضوح الرؤية، وتجدد قراءة ذلك المشترك الثقافى فى بعده الإنسانى الرفيع بين القبول، والتأثير والتأثر، وبين محاور الأخذ والعطاء، إلى احترام الانفتاح الذهني، والدعوة إلى إعمال العقل والفكر فى صورة إنسانية رحبة؛ محورها الحيدة والموضوعية، وأساسها سلامة المنهج، وصحة النتائج، وعدم الافتئات على التاريخ أو تزييف حقائقه وتفسيراته.

مثل هذا الاندفاع يظل ضمانًا لصحة مسار الأمة، من خلال قياداتها الفكرية الواعية، بعيدًا عن التخبط والعشوائية والارتجال، إذا أردنا أن نحقق ـ بالفعل ـ خطوة جادة نحو بناء مستقبل أفضل، وهو ما يمكن إنجازه فى عدة مسائل ومقترحات منهجية، منها :

- طرح صورة من المتوقع بناء على الشفافية فى قراءة معطيات الواقع دون انحياز أو جور، وإعادة النظر فى منظومة تاريخ الأمة، لا بوصفها مجرد ماضٍ نفتخر به، ولكن باعتبارها عاملًا مؤسسًا لإيجابيات الواقع وآليات المستقبل،

وبناء الثقة بالذات؛ فالتواصل الزمنى هنا يمثل جزءًا، لا يكاد يتجزأ من التواصل الإنسانى فى كل صوره وأشكاله ومستوياته وأنماطه.

- موضوعية الرؤية فى سياق صحة الحوار النقدي، بما يسمح بمحاسبة الذات ومراجعة النفس، دون جلد أو تقريع بما لا يضيف جديدًا سوى التراجع والتدهور، وزيادة مساحة الانكسار والانهزامية، ويجب تعزيز الأمر بقبول التعدُّدية، وإفساح الصدر لمقولات الآخر قبولًا أو رفضًا ومناقشة، والاتجاه نحو تعديل ما نستشعره من احتمال الخطأ أو وقوع التجاوز، أو عدم القبول بالشكل المناسب.

- الإصرار على رؤية المستقبل من منظور منهجى علمى عربى رحب، وإسلامى أكثر رحابة، نتجاوز فيه مراحل اليأس والقنوط التى قد تمليها مؤشرات الأحداث ـ أحيانًا ـ فالتاريخ ليس ملكًا لأحد، والأصول لا تذهب سُدًى إذا ما حدث التواصل والتلاقى بمنأى عن التباهى بالذات، أو التماهى فى الآخر، ففى وسطية الفكر ما يضمن سلامته دون تطرُّف هنا أو هناك، وفى غيبة التطرف يظل كل شيء مفهومًا وواضحًا وقابلًا للنقاش والإضافة والابتكار، وفى غيبته ـ أيضًا ـ تبين الحقائق، ويتكشف جوهر الأشياء.

- بناء مشروع عربى نهضوي؛ منطلقاته الكبرى هى مرتكزات الثقافة والأصول الثابتة دون تفريط أو تهاون فى محاولة النيل من أى منها؛ باعتبارها تراثًا إنسانيًّا له أبعاده وآثاره ومقوماته وضوابطه، مع شمولية الرؤية فى تحقيق التوحُّد الاقتصادى والتكامل المعرفي، وإتاحة الفرصة لأجيال المستقبل العربى فى إعادة صياغة علاقات الواقع العربى العربي، من خلال حرية الفكر من جانب، وتشجيع التميُّز والتفوق والابتكار من جانب ثانٍ، مع الأخذ بآليات المعرفة المعاصرة من جانب ثالث.

- ثقافة الاعتراف والصراحة فى إدراك حجم التحديات المرحلية؛ مع تهويل

شأنها، مع تحديد الآليات المطلوبة من خلال أبناء الأمة، دون فرض أو تبعية، وعندها يتم التلاقى والتكامل الحقيقى بين العربى والإسلامي، بما يمكن أن تنهض به المؤسسات المتعددة، التى تتبنى قضايا الفكر ودراسة منهجياته، بعيدًا عن طبيعة التوجُّهات السياسية للحكام، وانحيازًا إلى تحقيق طموحات الشعوب وآمالها؛ الأمر الذى يبدو جليًا فى إمكانة توظيف التكنولوجيا فى خدمة الفكر الإسلامي؛ على غرار ما يقع من خدمة غيره، مع مراعاة سرعة التحرُّك فى هذا الاتجاه؛ حتى لا يظل المقترح حبيس الأدراج، أو تذهب نتائجه المتوقعة أدراج الرياح !!

- الاتجاه إلى بنية المشروعات المستقبلية، التى تفى بتحقيق بعض طموحات أبناء الأمة ممن آن لهم المشاركة فى بناء مجتمع المعرفة، وبداية الخروج من شرنقة الاستهلاك إلى دائرة المنتج الثقافى والمنتج العلمي، بما يسهل أمامهم مهمة اللحاق بركب التقدم، أو يختزل المسافة بين المتقدم والمتخلف، أو ينبئ بإمكانة البحث عن حلول فاعلة لمشكلات الجيل، بناء على تواصل الخبرات وتراكم التجارب الإنسانية، التى ربما لا ندرك أبعاد دورها الحقيقى فى نجاح المشروع بشكل جاد، إلا من خلال الخطوات الجادة والممارسة الفعلية لأفضل ما هو متوقع منها.

٦

تقويم ومكاشفة

والتقويم هنا ينقسم عبر مسافتين : إحداهما قراءة الواقع التى تكررت مرارًا عن قصد، وهذه عرضنا لكثير من ملامحها وقسماتها وتداعياتها. وترتهن المسافة الثانية بتحليل الإيجابيات المتوقعة من المشروع المستقبلي، والتى يمكن أن نحلل من بينها عدة نماذج نرصد منها على سبيل الذكر والتأكيد إلى حد التكرار أيضًا :

١- تعزيز دراسة المشترك الإنسانى بإدخاله فى دائرة الدرس والتحليل، واعتباره مدخلًا هادئًا إلى التصالح مع النفس ومع الآخر، وهو التصالح المطلوب بين أبناء الأمة تجاوزًا للفجوات الفكرية المصطنعة، أو الاتجاهات المتناحرة ضمانًا لصحة التوجُّه إلى طريق التنمية البشرية فى صورتها الصحيحة البناءة؛ حيث تحترم الفكر وحرية الإبداع احترامها لمنظومة القيم وصناعة جسور التواصل، ومقومات المد بين السابق واللاحق.

٢- تفعيل قنوات الفكر وضمان الرحابة الهادية إلى إمكانة الانفتاح على كل اجتهادات المفكر الإسلامي، فى سياق مناهج التنوير والمعاصرة التى تستدعى الهدوء والرزانة والمراجعة، مع تأمل الأشياء بعيدًا عن العصبية والتشنُّجات، وبعيدًا ـ أيضًا ـ عن عدم الوعى الكامل بطبيعة الطرق الملتوية بين شعاب ومنحنيات، مما قد يدعو إلى إيثار الغموض أو التوقف فى مفترق الطرق، على نحو ما يراد بالأمة ـ أحيانًا ـ ككيان، أو بالثقافة كهوية، أو بالتاريخ كأصلٍ لها.

٣- تلافى صيغ الانقسام المجتمعى أو الانشطار الذاتي، والعودة إلى تأصيل منطوق رحابة الفكر المنهجى فى قراءة المستقبل؛ والوعى المناسب بضرورة تسخير عصر المعلومات فى خدمة الفكر الإسلامى المتهم دائمًا بلا مبرر، وآن له أن يحقق الرد الفعلى على كل الافتراءات.

٤- صناعة مشروع التحديث والإصلاح مَحليًا، لاسيما إذا امتلكنا إرادة التغيير الكافية لإنجازه، والآليات المناسبة للإقدام على مراحله الأولى؛ بدءًا من مواجهة صدمة الحداثة بتأصيل عطائها وتحديث موروثنا أمامها، إلى صناعة المزاوجة الهادئة بين ذلك الموروث والمستحدث، دون تراجع لأى منهما على حساب مسيرة نواميس الكون، أو اجتهادات الخلف استكمالًا لما صنعه السلف الصالح.

٥- تفعيل التكامل المؤسَّسى فى صناعة قنوات المعرفة، وبداية إنتاج الثقافة، ومواجهة التحديات، وتقوية الجسر الثقافى مع الآخر، مع سرعة الاتجاه إلى ثقافة الفعل بجسارة وقوة، تتجاوز فيها حد التخوُّف من النتائج، التى لاأحسبنا نتوقع أسوأ منها فى ظل حالة التردى والضعف التى حلت بنا، مع تجاوز حالة الخنوع والإحباط، والانتصار على منظور الانهزامية والتخاذل، وتجاوز مرحلة افتقاد الثقة فى الذات،أو فى منطوق التاريخ.

أما السلبيات المتوقعة فلعلنا نرصد منها ما يستوجب التعرف عليه من باب التخوُّف أحيانًا، والتراجع أمام باب الإصلاح فى معظم الأحوال، بدءًا فى ذلك من احترام حقنا فى الخوف على الهوية من أن تمس، ووجوب الحذر من اندفاعات رياح التغيير إلى حيث مقاصد التهميش أو المساس بالقوميات، أو الكيانات التاريخية.

من حقنا التعبير عن انزعاجنا المؤقت أمام المتغير، ولكن الإفاقة واجبة فى سياق القدرة على الاستيعاب، وسرعة التحول من دور التلقى إلى دور المرسل، ومن دور المستهلك إلى المنتج، دون تقاعس أو تواكل أو تخاذل أو انحسار.

ومن حقنا أن تهتز الرؤية ـ مؤقتًا ـ فى شكل ضبابى أمام مرجعيات التغيير، على ألا يعقبها ما نخشاه من التراخى فى الانطلاق إلى ثقافة الإنتاج، وتجاوز الخطابية والمزايدة وضجيج الحوار إلى حد الصراخ العويل، فالبديل أوفق وأولى فى التحول إلى منظومة العمل والإنجاز قبل أى اعتبار آخر.

وعلينا ولنا ـ أخيرًا ـ ألا نتراجع عن مسئولية تحليل الخطاب المعاصر من خلال دراسات جديدة، تضمن توصيل رسالة فكرنا الحقيقى إلى الآخر، وإلى النشء؛ ضمانًا للتواصل والتلاقى والاستمرارية بشفافية ووضوح وصحة المرجعية، بما يؤسس لرؤية جديدة على كل المستويات التربوية والفكرية والإنسانية.

خامسًا : المنهجية والآليات

١- قراءة المنهج بين دوائر الصراع والحوار والمشترك الثقافي

٢- منهج الحوار الثقافي

٣- السابقون إلى الحوار

٤- المشترك بين الشباب أمام تحديات المرحلة

٥- مرجعية الحوار الثقافي

٦- مساحة الحوار بين الحرية والالتزام

٧- الشباب ولغة الحوار

١

قراءة المنهج بين دوائر
الصراع والحوار والمشترك الثقافي

كثر الجدل وتعددت المواقف والقراءات، وتنوعت مسارات الاجتهادات حول الحد الاصطلاحى بين المفردات من حيث الدلالة المعجمية والتتبع التاريخي، إلى مستوى الإيقاع المرحلي، إلى الوفاء بمتطلب الفترة وظروف العصر؛ الأمر الذى بات مطلبًا ملحًا للتحول إلى محور للمناقشة عبر المؤتمرات والندوات والكتابات التى تعدَّدت صيغُها ومصادرها تعدد آلياتها ومقاصدها.

ونظرًا لأهمية الموضوع، وكثرة ما دار فيه من اللغط وجاد القول بين حق وباطل، بين اعتدال ومبالغات، فقد سعت بعض الجامعات إلى التفكير فى إنشاء مراكز كبرى حول حوار الحضارات، إلى جانب البرامج المطروحة خلال البرامج الثقافية لبعض المراكز المعنية بالشأن الثقافي، ودراسة معطيات التاريخ والواقع فى سياق عصرى متجدد الملامح والقسمات والأبعاد.

بات من المطلوب ـ إذًا ـ وبهذه المعيارية أن تعاد قراءة الأشياء، وأن يعاد طرح المصطلح بمنأى عن عشوائية الفهم، أو مقاصد التداخل، أو الإيهام التى ربما يرمى إليها بعض المرجفين إما عن غفلة وقصور فى الإدراك العلمى استقراءً واستقصاءً، وإما عن مقاصد غير طيبة فى محاولة المساس بتاريخ الأمم والشعوب، أو انتقاص حقها فى منظومة العطاء الإنسانى التى يسجلها لها التاريخ عبر وثائقه ومصادره.

ثم بات من المطلوب ـ أيضًا ـ وجوب تصحيح المفاهيم العشوائية، التى تشدق

بها البعض حول المصطلح الأول فى دائرة مفهوم " الصراع الحضارى " الذى برئت منه ـ بكل جدارة ـ ثقافتنا الإسلامية منذ تجاوز قضية العنصر والتعصُّب ومسألة الأجناس إلى ما تمتعت به من موسوعية الفكر وسلامة مرجعياته وعبقرية أدائه عبر مناهج أسست لها ـ وأصَّلت ـ الحضارة العربية الإسلامية تحت مظلة احترام كل الأديان السماوية، دون تفرقة أو مساس بأى من ثوابتها ومقدساتها، فجميعها جاءت من مصدر سماوى واحد؛ محوره التوحيد والعبادة، وإقامة العدل ونشر القيم الرفيعة والسلام والحق بين جميع البشر، على كل أرجاء الأرض.

وهنا تجلت فجاجة الدعوة إلى الترويج لمصطلح " الصراع " ضربًا من الظلم لثقافتنا التى لم تعرفه، ولم تقم عليه، ولم تعترف به، ولم تنطلق منه على الإطلاق بقدر ما انطلقت من مقومات الرحابة والعمق والأصالة، تحت مظلة التسامح واحترام الآخر وقبوله أيًا كان انتماءاته، أو توجهاته، أو طبائع فكره.

وكان الرد المنطقى على أصحاب دعم هذا المصطلح ماثلًا فى البحث عن منظومة " الحوار " الثقافي، التى بدت طوق النجاة من ربقة الاتهام، لاسيما حين ارتهن الأمر بالتخوُّف العالمى من الإسلام، بعد تفكك الاتحاد السوفيتى السابق، فبات العملاق الأمريكى يحلم بمزيد من التشرذم والتفتت والانقسام بين كل دول الأرض، ومنها ورد تحول هذه " الأمة " إلى " منطقة " بديلًا عن رمز الأمة، وإما إلى استيعابها فى عباءة نسق أكبر يمكن أن تختفى فيها ملامحها، أو تبهت شخصيتُها، أو يُنسىَ دورُها التاريخى الأصيل فى تأسيس مقومات الحضارة وتنمية الفكر البشري.

اتجهت المؤتمرات والندوات إلى منعطف الدفاع عن الذات العربية الإسلامية، كما لو كانت قد أخطأت فى حق البشرية، والحق أنها براء من ذلك براءتها من شبهة " الإرهاب " الذى لا يعرف دينًا بعينه، ولا وطنًا بذاته، بقدر ما يعرفه من فوضى التطرُّف فى أى من الأديان، أو على أى من المذاهب، أو حتى فى غيبة هذا وذاك.

والحق الواضح أن الأديان تدعو إلى الحوار على المستوى العقلى والإنساني، حيث

تضع له آدابًا وأصولًا وقواعد، وتصوغ له الأدوات والآليات، وما يتوقع منه من نتائج لها أثرها ودورها فى صياغة علاقات المجتمع الإنسانى على أرفع مستوى، مما يكاد يقترب مما صاغته الثقافة العربية الإسلامية بدءًا من منطق الأخوة، التى انضم إلى ركبها بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسى دون تفرقة بين عرب وأعاجم، حتى إذا تدفَّق العلم وتعددت فروعه قدموا للبشرية زادًا ثقافيًّا فى كل التخصصات، فكان منهم الرازي، والخوارزمي، والبخاري، والجرجاني، والسمرقندى وغيرهم من أفذاذ المعرفة وأساطين الفكر، بعيدًا عن لغة التعصب للأجناس أو الأقاليم أو الأوطان.

وتأكيدًا على تاريخية الظاهرة " المصطلح " والتحولات المرحلية حوله، كانت دعوة الإسلام ـ أساسًا ـ إلى وجوب الجدل بالحسنى، وربط صحيح الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وترشيح عدم المبادأة بعدوان على الآخر أيًّا كانت طبيعته، ومثل ذلك جاءت مطالب الصفح والعفو، مع تكريم الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والمحسنين منهم، فبدا المطلب حضاريًّا فى أرقى درجاته وأرفع منازله.

من هنا كان للأديان حوارها وكان لها وحدة مصدرها وشرف غاياتها، وسمو مقاصدها، بعيدًا عن المحاولات الغوغائية بقصد النيل من أى منها أو تشويهه تحت أى من المسميات أو الأهداف، ومنه أيضًا كانت لغة الحوار هى الأصل فى التعارف بين الأمم، وبنية العلاقات بين الشعوب التى تقاربت وتفاهمت وتجانست عودًا إلى أصل الخليقة، ومنه ـ أيضًا ـ كان تجاوز مصطلح "الحوار" إلى وجوب البحث العلمى المحايد فى مسألة المشترك الثقافى باعتباره المدخل الجاد للتلاقى بدلًا من التنافر، والاقتراب بدلًا من التباين، والتجانس بديلًا للتباعد، والجدل العقلى بديلًا للعنصرية والنمطية والانغلاق والجمود، ومنه أيضًا تأتى دراسة هذه الأرضية المشتركة، حين نفتح نوافذ ثقافتنا على الآخر بناء على دعم ثقافتنا فيها، وانطلاقنا منها دون استشعار للانهزام أو الانكسار، وتأكيدًا على دورها الخلَّاق فى خدمة الإنسان، عبر ثمانية قرون من عمر الزمان تحدثت فيها كل العلوم بالعربية.

وعلى هذا الأساس المحورى الشامل للمفهوم، تعددت نوافذ المشترك بين ثقافتنا العربية وثقافات الآخرين، وتبدو هذه النوافذ المدخل الآمن لإعادة قراءة الأشياء بمنأى عن شبهات الانحياز، أو الاستعلاء، أو التماهى فى الآخر، أو التباهى بالذات، أو حتى الانفصال عن معطيات الواقع. وعليه أيضًا تتجلى محاولات برامج المشترك لأن تفصل فى حدود المصطلح بما يضمه فى عباءته من كل المعطيات التاريخية والعصرية فى لحظة من لحظات التلاقى والانسجام بين كل ما هو إنسانى باعتباره صادرًا ـ أصلًا ـ عن الإنسان دون بقية الكائنات. فهل آن لنا أن نحدد الخطوط العلمية الفاصلة؛ وصولًا إلى دائرة المشترك فكرًا ومنهاجًا وإبداعًا بما يعزز سلوكنا، ويعيد مشهد تاريخنا الأصيل بعيدًا عن أية مزايدات أو اتهامات ؟!

٢

" منهج الحوار الثقافى "

الحديث عن المنهج أو حوله قد يثير الشجن لا سيما فى فترات العشوائية الفكرية، أوشيوع العبث وسيطرة الأهواء، أو إيثار ضجيج الأصوات حتى لو اخترقت الحقائق لمجرد إرضاء الذات، أو إثبات الوجود. وهذه آفة العلم فى توجيه دفة الحوار مما قد يفقده مضامينه وأهدافه، وربما يجنى على نتائجه وتداعياته، أو يحيله إلى ضرب من الجدل العقيم، أو الهراء والخلاف الأرعن.

من المنطقى أن تنهض منهجية الحوار على أسس وأصول ومقومات وثوابت يعد الانطلاق منها والتشبث بها أصلًا فى نجاحه، بما يقبل التنازل أو التهاون، ولا يقبل – أيضًا – التفريط فى الكيان ولا التهميش تحت أى من الضغوط، وهنا تبدأ منهجية الحوار من قبيل الاتفاق المبدئى على عدة مفاهيم :

أولها : توفير المرونة والتسامح، مع الاستعداد لقبول رأى الآخر وطرحه على ساحة النقاش دون تشبث بآراء مسبقة إلا من خلال مرجعية مؤكدة، وأدلة وشواهد وحجج دامغة وبراهين ناصعة تثبتها، وتجعل الالتفاف حولها ضربًا من المغامرة، أو المراوغة، أو المغالطات القابلة لتعديل.

ثانيها : تجليات الصدق والموضوعية، وأمانة الأداء، مع تغليب العام على الخاص، ونسيان توهج الذات أو الانبهار بكل ما يصدر عنها من تداعيات، وهو- أيضًا -ما يمتد إلى طبيعة العلاقة بالآخر، بعيدًا عن التماهى معه من باب

الدهشة والانبهار، بكل ما يدعو إليه، دون دراسة واعية بما ينم عن فقد ثقافة الثقة بالذات، أو ضمان مرجعية كل ما يلقى به إليها أو يدفع بها إلى قبوله.

ثالثها : الهدوء والأناة والتروى فى إصدار الأحكام؛ تلك التى ينبغى التقليل منها إلا بناء على ضرورة، ومن خلال منهج علمى واضح المعالم بين مقدمات وفرضيات ومعطيات ونتائج، تحول دون الانصراف إلى الطرح العشوائى للأمور، بما قد ينذر بالوقوف فى دائرة الفوضى والانقسام أومزيد من التشرذم والتشتت والتفرق دون دواعٍ حقيقية إلى أى من هذا كله إلا فى غياب المنهج وصدق الرؤية ودقة الأدوات.

رابعها: احترام أخلاقيات المناطق الحوارية على مستوى اللغة، بعيدًا عن الابتذال والسوقية، ووصولا إلى الحد المناسب من توظيف المفردات والمصطلح مع احترام الحد النوعى الاصطلاحى دون افتعال إسقاطات على ما لا يحتمل الإسقاط، أو الدفع بتأويلات على مالا يحتمل التأويل؛ الأمر الذى يحتاج كثيرًا من حكمة المحاور، مع فهم دقيق لمستويات الحوار وأنماطه دون قبول بالتهُّور والاندفاع، ودون استسلام لهيمنة الذات على ما حولها دون وجه حق من باب الرعونة أو الاستعلاء أو تجاهل الآخر أو رفضه.

خامسها: الاطمئنان إلى نتائج الحوار فى حالة ضمان صحة المنهج، وهو ما يتهيأ بتنمية ثقافة نقد الذات ومراجعة النفس، واعتبار الرأى الفردى مجرد خطوة على الطريق، قابلة للخطأ قابليتها للصواب، والاعتداد برأى الآخر قابلًا للصواب قبل الخطأ، وهو ما يحتاج - بدوره - دربة وخبرة، حاجته إلى العمق الثقافى وموسوعية الفكر بما يفتح الأبواب أمام المتحاورين للتلاقى أو الافتراق، للتقارب أو الاختلاف، وفى أى من الأحوال فلا فساد للود بينهم،

إذا كان الوصول إلى الحق هو الغاية، وكان المنهج العلمى هو الأداة؛ عندئذ تتقارب النتائج وتتلاقى، بحكم تقارب المساحات وتجنب الانطباعات، التى تضبطها آليات المنهج وخطواته؛ حماية من سيطرة الفوضى أو ضجيج الارتجال.

٣

السابقون إلى الحوار

لم تنطلق دعوى الصراع الحضارى من أرض عربية، لأنها لم تعرف ذلك الصراع ولم تصنعه، ولم تتخذه منهاجًا لها، ولم تعترف به مدخلًا لفكرها، أو صياغة لثقافتها.

ذلك أن ثقافتنا العربية قد تمتعت برحابة إنسانية لم تُتَحْ لغيرها، ولذا ظلت سْمتًا خاصًّا مميزًا لمسيرتها التاريخية التى لم تعرف الانفصام أو الانقطاع، بقدر ما عرفته من المرونة والانفتاح والتطور والتثاقف مع غيرها أخذًا وعطاءً، تأثرًا وتأثيرًا.

وليس من قبيل المبالغة ولا المزايدة على الآخر أن نزعم أن ثقافتنا العربية الإسلامية كان لها قصب السبق على المستوى التاريخي، فبدت صاحبة العالمية على مدى ثمانية قرون من عمر الزمان، لكنها عولمة إنسانية لا تعرف القهر ولاالضغوط ولا السيطرة، ولا تعرف الاستهانة بمقدرات الآخر ولا مقاصد هدم تاريخه، ولو شاءت ذلك لكان من حقها بوصفها الأمة الفاتحة والغالبة، ولكنها آثرت الالتزام بمنظومة القيم الحوارية، التى دعا إليها الدين الإسلامى حين قصد إلى الانتشار بخطاب العقل، ودعوة التفكُّر والتدبر والتأمل، بعيدًا عن الجمود والنمطية أو تعطيل الملكة الخاصة التى ميز الله الإنسان بها، وسخر له كل الكائنات بسبب من إعمالها فى اكتشاف أسرار الكون والمخلوقات والظواهر.

وامتدت منظومة القيم الحوارية سلوكًا وعملًا، من خلال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام، ممن كانوا نماذج عليا فى الطاعة، وتنفيذ تعاليم الدين

وآدابه، فجادلوا أهل الكتّاب بالتى هى أحسن، وامتدت دعوتهم للآخر بالحكمة والموعظة الحسنة، وقالوا للناس حُسنا، وأتبعوا السيئة الحسنة، وكان للسلف فى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- أسوة حسنة فى صورة الداعية الأول حيث زكَّاه ربه فكان على خُلُق عظيم، ولو كان فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حوله، ولكنه كان - والمؤمنون معه- أشداء على الكفار، رحماء بينهم، وكان - صلى الله عليه وسلم- بحكم موقعه منهم – كان بهم رؤوفًا رحيمًا.

هنا تتجلى خصوصية الحوار الثقافى فى عدة ملامح، تظل محسوبة للسابقين فيه من الرعيل الأول فى :

أولًا : تقدر جدوى الحوار وجديَّته بعيدا عن المهاترات والعبث، وبمنأى عن الإفساد والإضرار، وبمعزل عن الكراهية والحقد والتعصُّب والانغلاق، فلاحوار فى ثقافتنا إلا للبحث عن حقيقة، أو الإقناع بموقف، أو قضية، بصرف النظر – بالطبع – عن حوارات المصالح السياسية نحو نظرية الحكم لدى الفرق والأحزاب، وهذه تخرج – بدورها – عن دائرة الحوار الثقافي، وربما تتجاوز أبعاده الإنسانية الرفيعة.

ثانيًا : الطبيعة النوعية للحوار، وقراءة مستواه بعيدًا عن فرضية القهر أو الجبر، وانطلاقًا من أدوات الإقناع ومقوماته، وخروجًا من دائرة السفسطة أو ما يناظرها فى بعض الفرق التى حاولت إلباس الباطل ثوب الحق، فثمة مسافة بعيدة بين غلبة المصالح الخاصة والمنطلق العام للقضية والموقف؛ الأمر الذى تجلَّى فى منطوق الحوار الثقافى باعتباره مرتكز العقل، وأساس البحث عن اليقين وجلاء الريبة والشك والظنون.

ثالثًا : آداب الحوار وأخلاقياته التى تبدأ من التواضع، وقبول الآخر، دون استعلاء الذات أو التباهى بثقافة (الأنا) أو (القوم)، إلى احترام منطوق الآخر فى ظل باب الاجتهاد، الذى ظل مفتوحًا لمن أصاب وأخطأ، شريطة تعزيز آليات

الاجتهاد بأدوات جادة تظل ضامنة لمعيارية الصدق، دون الخوض فى متاهات الضلال أو مسارات التضليل.

رابعًا : رصد نتائج الحوار وتداعياته على النحو، الذى تجلَّت من خلاله فى صناعة التاريخ العربى الإسلامي، فلولا الحوار الذى انطلقت به جيوش الفاتحين لنصرة الدعوة ما دخل الناس فى دين الله أفواجًا، ولما كان الفتح الأكبر – فى عصر المبعث – بما تجسَّد فيه من أرقى نماذج حوار المنتصر مع المهزوم فى لغة الخطاب الحربى المتفرد، الذى تنادى به الرسول فى قومه متناسيًا كل سوءاتهم معه ليعطيهم الأمان وقت قدرته على الانتقام منهم، ولو شاء لأَبادهُم أو طردهم من مكة قصاصًا لما حدث معه، ولكنه تركهم طلقاء أمنين فى ظل دعوة، كان أساسها وديدنها الحوار.

خامسًا : تواصل الحوار وامتداده عبر أجيال الأمة بما يضمن له مقدرات الأصالة والعراقة؛ إذ لم يكن دخيلًا على الأمة، بل نبع من دستورها الموزع بين النصَّيْن المقدسين : القرآن الكريم والسنة الشريفة، وبناء على أصالته كان امتداده ليجذب إليه كبار العلماء وأساطين المعرفة، فتزاحم القوم على المشاركة والإسهام الحضارى متجاهلين جنسياتهم؛ حيث وجدوا دفء الحماية لدى قوم رحبوا بالامتزاج والانصهار مع المشترك الإنسانى من لدن الفرس، والهنود، والسريان، واليونان وغيرهم من أمم الأرض ترحيبهم بالنمط السلوكى الراقى الذى فتح الباب على مصراعيه أمام الإنسان فى أى من المذاهب أو الأديان، ليدلى بدلوه فى بوتقة تلك الثقافة الرحبة الواسعة.

السبق فى الحوار يعطى هذه الأمة حقا تاريخيًّا يصعب تجاهله أمام أى من الزعم الباطل حول مفاهيم صراع الحضارات، أو محاولات إلحاق الحوار بثقافات أخرى؛ مما يتنافى مع أدلة التاريخ وشواهده ووثائقه، بما يضمن للأمة حقها فى هذا المنعطف الإنسانى الدقيق، باعتبارها سباقة إليه حين علمت البشرية كيف يكون الإنسان إنسانًا.

٤

المشترك بين الشباب أمام تحديات المرحلة

جاء موضوع المؤتمر الذى عقدته رابطة الجامعات الإسلامية عبر وقائع الجلسة الأولى، التى راحت تعكس نموذجًا جيدًا من تواصل العطاء الحضارى للإسلام فى إيطاليا.

واللافت للنظر فى الموضوع أن الأساتذة جاءوا من جامعات إيطالية : فريق من جامعة نابولي، وآخر من جامعة فلورانسا، منهم المسلمون ومنهم المسيحيون، بينهم من صور الود والتلاقى المنهجي، وصيغ البحث الجماعي، وعمل الفريق ما يدعو المتلقى إلى التأمل والمراجعة، خاصة حين يتلقى منهم شهادات عصرية تتسم بالصدق والواقعية، وتنهض على أساس الاستقراء، ورصد النتائج عبر أبحاث ميدانية، ورد منها :

أولًا : حديث علمى عن المتغيِّر العالمي، والمتغير المجتمعي، وحالات عدم التوازن لدى بعض الشباب، والتخوف من عدم الارتباط بالمجتمع لندرة فرص العمل، ووجوب إعادة صياغة الحياة فى ظل منظومة العمل الجماعي.

ثانيًا : حوار حول الكيان الأسري، ونماذج الاستقرار العائلي، وسن الزواج، واعتبار الزواج ركيزة استقرار الشباب، وضمان مصير الأبناء، والهدوء تجاه المستقبل، والاهتمام بمنظومة القيم والنظم، وتقدير صور الالتزام السياسى والاجتماعى والدينى للشباب.

ثالثًا : حديث عن جيل المسلمين الإيطاليين على اختلاف دقة الإحصاء بين ثلاثمائة

ألف مسلم أو ثمانمائة ألف، وتوزيعهم بين أصول عربية إسلامية، قدموا أنفسهم للمجتمع الإيطالى فى صورة طيبة، وكيف أنشأ ثلاثمائة شاب مسلم إيطالى جمعية لنشر مبادئ الإسلام وتصحيح صورة المسلمين، ولكن المساحة الإعلامية لم تكن كافية لهم.

رابعًا : تركيز المسلمين منهم على فكرة التقارب والتفاعل والتكافل والوسطية فى الإسلام، ووجوب تعديل صورة المسلمين بعد أحداث سبتمبر التى أسهمت فى تشويه صورة المسلمين، عن فهم خاطئ لهم؛ مما وضع المشكلات والعقبات فى أسلوب معاملة الشباب المسلم، وثمة فروق أساسية بين صورة المسلمين وصورة الإسلام نفسه بما له من قداسة واحترام.

خامسًا : الإشارة إلى وجوب دراسة الثقافة الإسلامية فى صورتها الصحيحة، بعيدًا عن التشويه الذى أصابها فى توصيلها للمسلمين وغيرهم، وكذلك صورة العربى المسلم التى امتهنت إعلاميًّا، وصورة المرأة المسلمة، مع تحميل الإعلام مسئولية تشويه الصورة، ووجوب تصحيحها على المستوى الإعلامى الخارجى بشكل فاعل.

سادسًا : تحليل دور الإسلام فى نشر الحضارة فى صقلية منذ كانت معبرًا تاريخيًّا للعرب إلى إسبانيا، وعلاقة مؤسسى الأزهر الشريف بمؤسسى صقلية، وتدريس المناهج الإسلامية من خلال الأساتذة المسلمين، وطرح موضوعات متعددة فى الدراسات العليا حول الدراسات الإسلامية.

سابعًا : إسهام الإسلام فى نشأة الشعر الأوربي، تأكيدًا لطبيعة التواصل والحوار الذى انتهجته الثقافة العربية، ونشأة الشعر الإيطالى ـ تحديدًا ـ متأثرًا بالشعر العربى المشرقى فى صقلية، ونشر مؤلفات الأدباء المسلمين، مع الإشارة إلى تأثير رسالة الغفران للمعرى فى الكوميديا الإلهية لدانتي.

مداخلات علمية دقيقة، وشهادات من قبل الآخر، تحكى فصولًا من قصة تدفُّع

النهضة العربية فى فترة ازدهار العلوم والفن إلى إيطاليا، لينتهى الحوار إلى رؤى جادة كان منطلقها الموضوعية والقراءة المحايدة لحركة المد الحضارى الإسلامي، وتأكيد اتساع دوائر العطاء الحضارى للإسلام.

وهكذا جاء العلماء الطليان للإدلاء بشهاداتهم حول النموذج الإسلامى المفترى عليه عبر دوائر الاتهام الظالمة ! الأمر الذى يحتاج توسيع دائرة مثل هذا الحوار المنهجى المشترك قصدًا إلى تصحيح صورة المسلمين لدى الآخر، ودفاعًا علميًا عن صورة الإسلام المفترى عليه.

ويبقى محسوبًا لهذا الحوار دقة التوجه، وسلامة التخطيط المنهجى الشامل، بما انطلق منه من حسن المقاصد، وسلامة النوايا حول طرح مشكلات الشباب وقضايا التربية والتنمية، والدور الإسلامى المتوقع، ودور الشباب فى صناعة منظومة القيم التنموية، ثم دور الإسلام فى تكوينها، وموقع الشباب فى قضايا المجتمع، ثم مشكلات الشباب المسلم فى إيطاليا والمشاركات الرياضية الفاعلة بين شباب المتوسط، وأخيرًا آليات وأساليب تفعيل التواصل والتعاون بين شمال وجنوب المتوسط.

محاور بدت جادة ومداخل بدت متميزة، ينبغى أن نستزيد من أشباهها لتعميق مفاهيم الحوار الحضارى عبر رابطة الجامعات الإسلامية، التى نشكر لها هذا الدور البناء فى كشف جوانب المشترك الثقافى والإنسانى بكل قسماته وأبعاده.

٥

مرجعية الحوار الثقافي

حين ندعو إلى ضرورة الحوار أو تعزيز آلياته ومناهجه تظل مرجعية الحوار بمثابة المدخل الآمن لجديته ونجاحه وضمان سلامة نتائجه وتداعياته بعيدًا عن التصادمية والجمود أوالتشبث بالرأي، أو صلابة المواقف حين يلفها الانغلاق أوالتعصُّب.

من هنا تبدو أهمية توصيف المرجعية من حيث الدقة، والصدق، والشفافية، وسلامة المعيارية بعيدًا عن هيمنة المصالح الشخصية، وبمنأى عن طابع المزايدة والمبالغات، وقريبًا من التجرُّد والحيدة والموضوعية والعلمية؛ وهو ما يتأسس عليه نجاح اللغة الحوارية فى التوصيل والإقناع والتواصل الجدلي، الهادف إلى تحقيق نتائج عملية صحيحة ومتميزة وجادة.

فى الحديث عن صدق المرجعية، غالبًا ما يقودنا الأمر إلى المنطقة الحوارية، وتشخيص دائرة القول والمناقشة، فلا أقل من إلمام المحاور بالمصادر الدينية بمالها من خصوصية القداسة وصدق التعبير على المستويات الإيمانية والسلوكية والأخلاقية والقيمية والتشريعية؛ مما يجعل الحوار فى هذه الدائرة أكثر رصانة وروية وأصالة، لاسيما إذا صدر عن الدعاة وعلماء الدين ممن ينطلقون من أهداف سامية، أساسها الأول تنمية الوعى الديني، أوتعزيز الخطاب لغة وهدفا، أوتجديد القول فى المشكلات والحلول، وبحث الهموم والقضايا المرحلية؛ الأمر الذى يتطلب من الداعية ألا يظل يردد قوالب جامدة بقدر ما يعيد توظيف القول فى معالجة معطيات

المرحلة، وأن يكون واعيًا بما تقتضيه الفترة وما يدعو إليه الواقع، وما يهفو إليه الجمهور من قراءات واجتهادات؛ فمن المؤكد أن الداعية المجتهد أفضل حالًا فى دائرة عطائه وتأثيره من غيره حيث يمكنه الهيمنة على ضمائر جمهوره، والنفاذ إلى وجدانه، ودفعه دفعًا إلى المشاركة والفهم، ومنحه، مساحة من المناقشة والتثاقف والتداخل والتلاقى والحوار.

وآفة الحوار وعواره غيبة المرجعية المتخصصة الذى تحميه وتدعمه، وحيث تظل المرجعية بمثابة الموجه الأمين الهادى إلى نجاحه وموضوعيته، فمن شاء الحوار فى السياسة فليكن على درجة من الوعى بخلفيات الفكر السياسي، وأصول الخطاب السياسى ومقوماته، حتى يضمن حدًّا معقولا من المصداقية؛ وإلا فعليه الإيثار لأن يظل هادئًا فى موقف التلقى مع دراسة الآراء والمواقف حتى تتشكل لديه ملكة الوعى وعمق الرؤية، وعندئذ يستطيع تكوين النسق الذاتى للمشاركة الحوارية دون فجاجة أو ادعاء، ودون جهل أو أخطاء.

ولنا أن نقيس على ذلك بقية المرجعيات الصحيحة للحوار، ولنا أيضًا أن نتوقع تحمل المسئولية من لدن المؤسسات والهيئات الداعية إليه والآخذة بمناهجه، والدافعة إلى قراءة ضروراته وحتميته؛ على غرار ما نعرفه – مثالًا- عن دور رابطة الجامعات الإسلامية، ورابطة العالم الإسلامي، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومجمع البحوث الإسلامية، والمؤسسات المعنية بدراسة العلوم الدينية من كليات جامعة الأزهر وكليات دار العلوم والآداب، إلى اللجان الفرعية والشعب والهيئات على غرار شعبة اللغة والأدب بالمجلس الأعلى للثقافة، ونظيرتها بالمجالس القومية المتخصصة، وغيرها من جمعية لسان العرب أو جبهة حماة العربية أو غير ذلك؛ مما يعكس الرغبة الحقيقية فى التواصل والتلاقى والتفاعل، بقصد وحدة الهدف والوصول إلى كلمة سواء من خلال تجليات الحوار الثقافى الجاد، فهل تحاورت هذه الهيئات والمؤسسات، وتبادلت الآراء والمطبوعات والمؤلفات والتوصيات ونتائج المؤتمرات؛ باعتبارها

خلاصة فكر وحصيلة اجتهادات لتصنع من مجملها مشروعا حواريًّا إسلاميًّا فى إطار المجموعة الأولى، أو حوارًا عربيًّا راسخًا وأصيلًا فى سياق المجموعة الثانية.

من الأهمية والضرورة أن يتحقق مثل هذا الطموح – أو قريبًا منه – باعتباره مدخلًا لمشروع التكامل المعرفى المتجانس بين الأمم، التى كانت من قبل أمة واحدة عربية أو إسلامية، تعرف حق ثقافتها وفكرها، وتحترم أصالة مرجعيتها بعيدا عن الشطط أو الانحياز، وبعيدًا – أيضا – عن التقوقع أو الانغلاق.

فإذا صحَّ هذا – ونتمنى أن يصحّ – بقيت أدوار مراكزنا الثقافية العربية فى الخارج فى حاجة إلى تبنى مشروع علمى عربى أو إسلامي، ينهض على أساس حوارى مع الآخر، بدءًا من ترجمة فكرنا إليه ببساطة ووضوح، وانتقالًا إلى قبوله والتعارف عليه، إلى محاولة تصحيح المعوج من الأمور أوالمشوه من الصور، أوالمغلوط من القول، أوالمطروح من الافتراءات؛ وعندئذ نستطيع تجاوز حوار "الطرشان" الذى نسأمه كثيرًا حينَ يتسلل إلى دائرة الحوار مع الآخر، أو نقل الصحيح إليه؛ **مما يعيد إلى الأذهان صحيح المشهد الثقافى عربيًّا أو إسلاميًّا عبر مناهج تحكمها الرويّة والأناة والحيدة، وتغيب عنها الأهواء والادعاءات، وتتجاوز حد النبرة الخطابية والتشنجات وتضخم الذات إلى محاولة الاندماج والتفاعل الحضاري، دون تفريط فى الهوية ولا تهميش للذات، ولا تدهور فى الشخصية القومية التى تظل فى دائرة الأمان، بقدر ما تضمنه لها سلامة المرجعية وصدقها من ضمانات الأصالة والتواصل والبقاء.**

٦

مساحة الحوار بين الحرية والالتزام

من الطبيعى أن يرتهن الحوار بفيض الحرية ومساحات التعبير، وإلا غابت قيمته، وجمدت وظائفه إذا غابت حرية الرأى أو نصوص الاجتهاد والابداع، أو زادت حدة فرض الخطوط الحمراء؛ ليتحول المشهد الحوارى من المتن إلى الهامش على دفتر الفكر وكتاب الثقافة.

من الضرورى – إذًا – الاعتراف والتسليم بقيمة مساحة الحرية بحيث تتجلَّى الحدود الفاصلة وبينها وبين الفوضى؛ حيث إن الفوضى تُغَيِّب. المنهج والقيمة والنموذج، وقد تنتهى معها القواعد والضوابط، وتسقط المقاصد والأهداف. الأمر الذى يحتاج – بدوره– إلى تحديد واضح لمفهوم الالتزام ومساحاته؛ بحيث يمكن حل المعادلة الدقيقة بين الحر والملتزم دون تناقضات أو خلل، ودون غموض أو تعقيد أو تداخل أو إرباك اصطلاحي، أو خلط فى الأوراق.

وفى حرية الحوار ما يضمن الجدية والصدق، كما يضمن الجرأة على استقراء الحقائق واستقصاء الظواهر، دون قصور أو خلل، وفى مساحة الحرية المتاحة ما يشى بتعرية الأشياء، واستجلاء جوهر المواقف، بعيدًا عن زحام التناقضات بين الفعل والقول، وبمنأى عن الافتعال والزيف والمغالطات.

فى ضوء هذا المفهوم – وقريبا منه – يظل الحوار جزءًا لا يتجزأ من منظومة الحقوق الأساسية للإنسان، بقدر ما وضعته الفطرة السليمة، وسجلته الأديان فى صدارة عطاءاتها المقدسة أيًا كانت طبيعة مفردات المعجم الدالة بذاتها على ضرورته

ووجوبه، بين الجدل بالحسنى، والمشاورة فى الأمر، وقبول الآخر إذا ما جنح للسلم، ورفض العدوان إلا دفاعًا عن النفس والأرض والعرض، إلى صياغة مبررات الحوار بين البشر انطلاقا من وحدة النوع، وتنوع الأقوام، إلى رصد المعالم الكبرى للسلوك القويم الضامن لسلامة مسيرة الإنسان فى سياق قيم التسامح والأخوة والرابطة الروحية والعفو والصفح والمرونة، دون انغلاق أو جمود أو تَعصُّب ..

على أن ضبط المساحة بين طرفى المعادلة بين الحرية والالتزام يظل مدخلًا ضروريًّا إلى صحة المسار الحواري، وهو ما يرتبط – بالتأكيد – بآداب الحوار، وهدوء روح المناظرة وتحويلها إلى منهج وقضية ورؤية وموقف، وليس مجرد طرح لآراء الفرد على حساب الآخر، إلا فى حساب موجات التحديات أو العنف أو التطرف والمغالاة والمبالغة، وجميعها تنتهى إلى الفشل فى إدارة الحوار فى صورته الصحية.

ومع الحرية والالتزام وبينهما، تقف العلمية ضامنًا آخر لصحة الأداء. والعلمية هنا تتضمن حدود القضايا والمواقف، وتجاوز الاستغراق فى التفاصيل وتوافه الأمور، وإلا انصرف الأمر عن الجادة وزادت متاهات الفوضى، وضعفت السيطرة على المساحات الضامنة لصحة المسار وسلامة المسلك.

ويبقى السؤال المهم : أيهما أفضل: وضع ضوابط للحوار عبر المساحات المتاحة أم ترك الأمور بلا حدود ولا معالم؟!! والإجابة هنا تحكيها الفواصل الواردة بين القمع والعنف؛ وبين مساحة الحرية المطلوبة، وهى المساحة ذاتها فى مطلب الاجتهاد الذى فتحه الإسلام على مصراعَيْه حين منح المجتهد أجرا إذا أخطأ وأجرَيْن إذا أصاب، مما يعنى أن باب الحرية مفتوح بلا حدود، وأن الأجر بقدر نتائج الاجتهاد، ففى الصواب ما يفيد الآخر نفعًا، وفى الخطأ ما يفيد صاحبه فقط فى شرف المحاولة، مما يعنى – فى نهاية المطاف– قداسة العقل ووجوب إعماله، وعدم تعطيل الملكة أو إبطال التفكير، أو إيقاف المحاولة التأملية.

لعل هذا هو المحك فى تقدير حركة التوازن بين الحرية والالتزام، ضمانًا لعدم وقوع التصادم بين المتحاورين، أو اتساع شقة الخلاف، بما قد يهدد بتدمير العلاقات الإنسانية فى مستنقع الانهيار، وهو مطلب غير وارد فى سياق المفهوم الصحيح للغة الحوار، إذا حسنت النوايا وصحت المقاصد دون افتئات على حقوق الآخرين فى مساحة العرض، أو أسلوب المعالجة؛ لتظل ساحة الحوار فى نهاية المطاف مدخلا حقيقيًا إلى كشف الحدود الفاصلة، بين الحرية ومنطق الالتزام وعالم الفوضى.

٧



الشباب ولغة الحوار

من البدهى أن تكون للشباب لغة خاصة تتسق مع حماسه وتنطق بآماله، وتعكس رؤاه وأفكاره وتطلعاته، وتحكى أحلامه المستقبلية الواعدة، ومن الطبيعى أن ينظر الكبار إلى متطلب الحوار الشبابى من خلال رؤية واقعية؛ أساسها القراءة الموضوعية لأوضاعه، والانغماس فى عمق مشكلاته وهمومه، ومحاولة تمثل آراءه وواقعه.

من هنا تأتى حتمية القراءة الهادئة لمستويات لغة الحوار مع الشباب، والتى يمكن أن نقف منها عند عدة اعتبارات أساسية ومهمة :

الأول : تقدير الظروف النفسية للشباب فى زحام المتغيِّر الثقافي، لاسيما حين يتحول بعض المتغير إلى مقاصد هدم الفكر، أو المساس بالمكون الثقافي، أو ضرب منظومة القيم العليا والمثل الراقية فى مقتل، على نحو ما تبُّثه بعض الفضائيات الموجهة لأداء تلك المهام، لاسيما حين تحولت الأغانى الشبابية الهابطة إلى أفلام مخلة بالآداب تتلاعب بغرائز الشباب، وتستهدف التلاعب بوجدانهم ودغدغة مشاعرهم، وإبادة طاقاتهم فى زحام تيارات العبث والعربدة، والاندفاع إلى التحلل والتحرر القيمى بما لايتسق وطبائع قيمنا وثوابتنا عبر تقاليدنا الشرقية الأصيلة.

الثانى : محاولة إيجاد صيغ علمية متوازنة ومحكمة لمواجهة، الأزمة والانتصار لمستقبل الأمة الماثل فى قوة شبابها بما يتطلبه من حصانة وتثقيف وإقناع،

وضمان أفضل للتواصل مع السياق المعرفى الموروث والمعاصر، دون امتهان للقديم أو تجاهل لقيمته ودلالاته، ودون التماهى فى كل ما هو جديد لمجرد الاندماج معه تقليدًا أو إغراءً، إلى حد التجاوز فى أكثر الأحوال.

الثالث : وجوب صناعة حوار متجدد مع شباب الأمة من باب التعريف بماضيها العريق، قصدًا إلى الاعتزاز دون المزايدة أو التلويح بالشعارات، أو الاتكاء على الماضي، بما قد يشى بإمكانة الانقطاع عن الحاضر فى ضرورة الاتجاه إلى اللحاق بالثورات العلمية والتكنولوجية وتراكم المعرفة دون توقف، وإلا حُكم عليه بالتخلُّف والجمود أمام مشاهد الحركة المطردة للتقدم العلمي.

الرابع : محاولة الوصول إلى عقول الشباب ووجدانه فى آن، مما يجب أن تتفق عليه وحوله برامج التربية، بدءًا من وضعية الأسرة المصرية، إلى مسئولية الآباء فى تربية النشء على أصول الانتماء ومنطق الإعزاز لرموز المواطنة، وانتقالًا إلى التعليم عبر كل مراحله بما يطرحه من أخلاقيات وقيم عبر المنهج الدراسى من جانب، ووجود القدوة المثلى فى سلوك المعلمين والإداريين والقيادات المدرسية من جانب ثان.

الخامس : واستجابة لإيقاع العصر وخطر ثورة الاتصالات، ينطلق الحوار مع الشباب خلال منظومة القيم، التى يمكن أن تبثها الوسائط المعاصرة فى تيسير المادة القرائية التراثية بشكل عصرى مبسط، وفى محاولة إحياء التراث وتجديده حوارًا ومساءلة ونقاشًا وجدلًا وإضافة وابتكارًا دون ركون إلى منطق الهيمنة أو السيطرة أو الرقابة، بقدر ما يتجلَّى من مفاتيح الاجتهاد، وآليات التجديد القرائى عبر مناهج جديدة..

ومن المؤكد أن صناعة التواصل بين الشباب وتاريخ الأمة يظل عملًا قوميًّا مرحليًّا مطلوبًا وخطيرًا فى مواجهة " العولمة الثقافية "، التى قد تصرفه حتى عن تعرُّف أصوله ومقومات تاريخه؛ الأمر الذى يتطلب حصانة ثقافية تتبناها الخريطة

الإعلامية فى إعداد برامج مناسبة لتقديم اللغة الصحيحة، والتعريف بأعلام الفكر وأقطاب الثقافة، وشوامخ الأدب وشيوخ البيان، وأقطاب الإبداع والابتكار فى شتى العلوم، مع بيان دورهم الحقيقى فى الارتقاء بالفكر البشري؛ الأمر الذى يفتح أمام الشباب باب الأمل فى إعادة بناء مستقبل علمي، يجدد من خلاله تاريخ السلف الذى امتلك من العقل والنبوغ ما علَّم به الإنسانية كيف تتعامل مع الكون، ولولا الكبوات العارضة التى اصطنعها الاستعمار وصور الاحتلال، لاختلف حال الأمة وتغير وضعُها واطَّرد تقدمها وازدهارها على مدار حقب التاريخ دون انقطاع.

من مثل هذه المعطيات والمشاهد، يمكن للغة الحوار مع الشباب أن تظل هادفة وناجحة من خلال الشواهد والنماذج الجادة، مع رسم الأطر الأخلاقية والمثالية النابعة من جذور ثقافتنا وهويتنا، وبيان الحقائق الجوهرية وراء حالة التردى المؤقت، مع إعادة بناء الفكر فى سياق التحول إلى أمة منتجة مبدعة، كما كانت فى ماضيها العريق، وأن تجنح إلى ثقافة الإنجاز والتفوق والترقي، دون استسلام للحالات العارضة من الاستيراد والاستهلاك، أو إيثار السكون وتقليد الآخر.

من حق الشباب وواجبه أن يتواصل - منهجيًّا وفكريًّا - مع أفضل ما هيأه له السلف من صور الاجتهاد والتفُّتح ومجالات الابتكار والتجديد، بعيدًا عن منطق الجمود والتبعية وغيرها من تداعيات فقد الثقة بالذات، مما يجنى - بحق - على مستقبل الأمم ومسيرة الأوطان.

سادسًا : تداعيات الحوار الثقافي

١- الحوار وتجديد الخطاب

٢- الأستاذية والحوار واحترام الذات

٣- صناعة برامج الحوار الثقافى وواجب الجامعة تجاه شبابها

٤- نتائج الحوار الثقافي

٥- الحوار الدينى وتجدُّد الخطاب

٦- الحوار وأبواب الاجتهاد

١

الحوار وتجديد الخطاب

يظل مطلب التجديد فى منظومة الحوار الثقافى هلاميًّا وغير واضح المعالم فى غيبة دوائر الحوار الواضحة ومستوياته المحددة، حين تتأسس عليها محاور العمل المشترك، بما يضيف الجديد من صيغ الابتكار، لاسيما إذا توجهت المقاصد إلى تثقيف النشء، وتعزيز دور الموروث والمعاصرة فى تكوينه.

من هذا المنطلق كثرت أصوات المطالبة بتجديد صيغ الخطاب الثقافى من منظور تربوى وقيمى وتعليمى وشبابى وديني. كثرة المؤسسات القائمة على الدراسة والإنجاز والتحليل؛ الأمر الذى يتطلب إعادة النظر فى دور الحوار بوصفه مدخلا أساسيًا وقاسمًا مشتركا بين كل الصيغ والمقومات الثقافية، وهو ما يتطلب – أيضا – إعادة قراءة الواقع بكل مشكلاته وأبعاده وسلبياته فى محاولة تحسينه وإصلاحه، وتوجيهه الوجهة الصحيحة تجاه رؤية المستقبل.

وعلى هذا يصبح حوارنا حول ظاهرة " الحوار" أصلًا من أصول تجديد الخطاب الثقافي، دون أن يعنى هذا – بالضرورة– حداثة الظاهرة الحوارية فى الثقافة العربية، بقدر ما يعنيه من أصالتها وعمقها وتجذُّرها فى بنية الفكر العربى على مدى رحلته الطويلة، عبر حقبه وعصوره المتلاحقة.

ذلك أن منهج المفكرين العرب لم ينطلق أبدًا على أساس تصادمى أو صراعي، وإلا فقدوا أهم آليات التثاقف، ومداخل التجانس مع بقية الثقافات التى عكفوا على الترجمة منها وإليها، بدءًا من الترجمة الحرفية، وارتقاءً إلى الترجمة بالمعنى، وتتويجًا

للترجمة بما أضافوه من مشاركات عبر نظرياتهم ونتائجهم، وما دونوه من ملاحظاتهم وأفكارهم وآرائهم ومواقفهم.

بدا الحوار لديهم أصلا من أصول التعامل مع شعوب الأرض قبولًا ونقاشا وجدلًا وأخذا وعطاء وتأثرًا وتأثيرا، وإلا حكموا على حضارتهم بالانكماش والانحسار، وهو مالم يحدث لها إلا تحت ضغوط الاستعمار ومراحل الاحتلال، والانصراف إلى مواجهة قوى الطغيان والهجمات الشرسة التى بدت حاقدة عليهم من قبل الآخر.

وعلى الرغم من رحلة المعاناة التاريخية ظلت الثقافة العربية صامدة بحكم ثوابتها وأصولها ومقوماتها، وبحكم مرونتها وإنسانيتها وامتدادها وتواصلها وقدرتها على البقاء، ولو كانت ثقافة هشة أو عارضة لأصابها من صور التلاشى والفناء ما أصاب غيرها، ولتحولت إلى ثقافة تاريخية بدلا من وضعها ثقافة حية تمتلك من آليات التواصل ما يضمن لها التجديد والاستمرارية والبقاء.

الصحيح فى رحلة تلك الثقافة – إذًا- ما تمتعت به من الموسوعية والإنسانية وسعة الأفق، وجميعها مبنية بنية حوارية محكمة بما يمكن تحديده – علميا – فى نقاط محددة:

- فالإنسانية حوار وتعارف يتجاوز حد التعصب ودوائر الانغلاق على الذات تجاوزه الحدود الفارقة بين المذاهب والأديان، حيث يظل التشبث بها تيارًا مناهضًا لوحدة المعرفة الإنسانية، وما ينجم عنها من التعددية والثراء والإثراء.

- والموسوعية حوار بين العلوم والمعارف على اختلاف تخصصاتها، بين الإنسانى والمجتمعي، والنظرى والتطبيقى والإبداعي، وجميعها تسير فى اتجاه التكامل الذى يبنى جسور التواصل الإنسانى فى أدق مشاهدها وأرقاها منزلة.

- وسعة الأفق لا تتأتى أصلًا من الاستعلاء أو المباهاة، بل بمنأى – أيضًا – عن مستوى الانبهار والدهشة، والتماهى فى الآخر من باب التقليد الأعمى لاسيما لدى الأمة الغالبة، إذا قبلت التنازل عن حقوقها فى الانتقاء بما لا يضر هويتها، ولا يهمش كيانها، ولا ينال شيئا من تاريخها وأصالتها.

على هذه الأسس يظل الحوار المدخل الأول لمنظومة التجديد الثقافى على اختلاف أبعادها، ومحاورها ومستوياتها وأبعادها، كما يظل الأصل المتين للتواصل الفكرى فى تاريخ الشعوب والأمم.



الأستاذية والحوار واحترام الذات

قد يبدو الموضوع – منذ البداية – مؤشرًا للانحياز الصُّراح إلى الأستاذية باعتبارها منهجا وسلوكا ونموذجا وقدوة، وهذا حق لأنه المطلب الأول والمشروع الآمن فى تحقيق الحد الأدنى من مقومات الأستاذية التى مسَّها كثير من التدهور والانفلات – وأحيانا - الانهيار تحت وطأة سلوكيات وضغوط وممارسات ينهض بها بعض الأساتذة خارج السياق والمعجم، إذ ربما صعب توجيه اللوم إليهم بحكم مواقعهم المؤقتة، وكراسيهم الزائلة.

صحيح أن لدينا الأستاذ المثال والنموذج، ولكنه يظل استثناءً يلفت الأنظار، ويشار إليه بالبنان، وكأنه نموذج فرد بالقياس لتواتر أخلاقيات التدنى وظواهرالتردِّى والتى تسمح للبعض بالتنازل عن معطف الأستاذية تحت مظلة سيطرة مصالح شخصية، أو منافع زائلة، أو التنازل عن الصالح العام!

يصعب على المرء أن يرى أستاذًا فى منصب قيادى مرموق، يتزلَّف رئيسه الذى قد يصغره سنا بمفردات لا تليق بقاموس الأستاذية، يتمسح فيه، أوينافقه نفاقا مكشوفا لكل من حوله استحسانًا لكل ما يقول، حتى لو لم يقل شيئا، فكأنما توهَّم أنه قاله أو أوهم الرفاق بذلك..

ويبدو الأمر عجيبًا إذا تنازل عن ثوب الحياء، فصنع ما شاء فى سلوك مستهجن، أومنطق مستقبح، أونموذج مبتذل أساسه النفاق والمراءاة والمراوغة؛ الأمر الذى يدفعك إلى الشك فى منطق "الأستاذية " حين تتدنى إلى مثل هذا المدى البغيض،

والأولى بالأستاذ هنا أن يتحول إلى نمط آخر ينأى به عن جلال الأستاذية وشرف المنزلة والمكانة التى نتوخاها ونتوقعها فى " الأستاذ " عبر مواثيق الشرف والدساتير والأعراف، التى يتوقع المجتمع العام أن لها خصوصية فى عالم الأساتذة بصفة خاصة.

يصعب على المرء أن يجد أستاذا لا يتحدث إلا بمنطق المال، أو اجتلاب الثروة، وربما لا تجد له متطلبًا فى زحام حياتنا المعاصرة من أبناء قد يحتاج رعايتهم ولا بيتا قد يحرص على إقامته؛ ومع هذا تراه منكبا على جلب المال سائلًا عنه، وباحثا عنه بشتى الوسائل والطرق وبصور مزرية ربما يخجل منها الرفاق، ولكنه لا يخجل، ولا تدرى لعلها النشأة التى أصَّلت فى أعماقه حب امتلاك المال لذاته، أو أنها رواسب الحرمان أوالبحث عن الثروة حتى وإن لم يكن فى حاجة إليها!

يصعب على المرء أن يجد أستاذًا يتحول إلى حارس لأستاذ مثله، أويتنازل - بكل بساطة - عن شرف الأستاذية لاسيَّما إذا ظهرت آيات نفاقه مع تغيُّر الشخصية القيادية، فتراه فى الموقع نفسه يمالئ القيادة الجديدة بالمفردات نفسها التى تعكس كثيرًا من ثقافة الجحود والنكران والقدرة على الأكل على كل الموائد، وهى تعكس- فى الوقت ذاته- قدرة الأستاذ على التعايش مع سوق النفعية الرديئة التى لا تقبلها الأستاذية الشريفة بين القيل والقال، أو بين مشهد النمام الذى يحاول كسب المساحات على حساب الآخر، فهى أستاذية هشة قوامها الكذب والافتراء ومحورها المراوغة والمراءاة، وهو مالا يدركه المسئول إلا حين يرحل عن كرسى المنصب، عندئذ يتبَّين له الحد الفاصل ، بين الصدق والنفاق..

ويظل السؤال الحائر؟ هل الأستاذية أجزاء متناثرة؟ أم أنها كل واحد غير قابل للتجزئة؟ هى عند البعض مجزأة مهترئة حين يقبل الأستاذ - أى أستاذ - أن يتحول إلى أداة أو وسيلة للنفاق ومخادعة المسئول، لاسيما أنه باع ما بقى لديه من شرف الأستاذية.. من المؤكد أن مثل هذا النمط لن ينال يوما سوى ما يحصل عليه من مكافآت مشبوهة، سرعان ما تزول أمام الحقيقة الخالدة، التى ينبغى أن يظل فيها الأستاذ أستاذًا بسمعته وشرف أدائه.

الأستاذ الحق هو القادر على الحوار مع الأشياء والحقائق كما هي، والأفراد كما هى عليه،تحكمه الشفافية ووضوح الرؤية، بعيدًا عن المداهنة والرياء، وإذا كان للأستاذ أن ينافق أويرائى أويزايد فما بالنا بالنشء؟ وهو يتأمل قياداته متصوِّرا فيها المثل العليا والنماذج الرفيعة، وقليل منها - للأسف - قد ينأى بذاته وأخلاقياته عن حد الرفعة والسمو، فهل إلى تصحيح مسار الأستاذية من سبيل يعكسها الاتفاق على الحد الأدنى من المعايير الحاكمة لشرف المهنة وصحة الأداء، وقياس معيارية النفاق الاجتماعى التى يجب أن يبرأ منها الصغار، فما بالنا إذا وقع فيها الكبار!!



صناعة برامج الحوار الثقافى وواجب الجامعة تجاه شبابها

الحديث فى الواجب صعب ومتعدد الجوانب والأركان والمساحات والأبعاد بقدر ما يتطلبه الأمر من الجسارة ومواجهة الذات ونقد الواقع، واحترام قراءة النموذج والبحث عن المثال، وهو ما يجب أن نبدأ منه، لننتهى إليه.

ذلك أن واجب الجامعة تجاه الطلاب فى هذه المرحلة – تحديدًا – أصبح مطلبًا مهمًّا إلى حد الضرورة والإلحاح، لمواجهة التحديات والتنافسية من ناحية، وضمان الإجادة وإحسان الأداء وتنمية ثقافة الثقة بالنفس ومقدرات الأمة من ناحية أخرى.

من هذا المنطلق أخذت الجامعة على عاتقها أن تنهض بأبنائها ثقافيًّا بما يكمل لديهم مفهوم احترام الرموز والأعلام والرواد والحوار مع القيادات التى تلتقى مباشرة بالطلاب عبر برامج الموسم الثقافى – مثلًا – بما ينهض عليه من فلسفة تكوين الشخصية وتنمية المهارات، أومحاولة استكشاف القدرات، وتعزيز النماذج القيادية القادرة على إجادة الأداء من خلال التثاقف والتواصل مع الشخصيات العامة.

وتبذل الجامعة جهودها المتعددة لترسيخ مفاهيم الحوار والديمقراطية فى ذاكرة الشباب ووجدانه، وتدريبه على ممارسة حرية التعبير وإبداء الرأى وجدل الفكر والمناقشة والمداخلة دون خطوط حمراء، أو تعطيل لمستوى الحوار، كما تحرص الجامعة على إعلام طلابها بكل ما تتوخاه من وسائل وسبل؛ أملا فى نقل طلابها من

ساحة الفضائيات وفوضى البث العالمى إلى مناطق الحصانة الآمنة التى تتغياها الثقافات القومية من خلال إلمام الشباب بها من باب المعرفة والاحترام، والتواصل والاستمرارية، وبناء عدة ثقافات مطلوبة، منها: ثقافة المواطنة والانتماء، والتثاقف مع الغير والتلاقى فى سياق المشترك، والثقة بالذات ومعرفة الآخر دون تعصب أو انغلاق أو جمود.

كما تبذل الجامعة جهودًا متواصلة فى سبيل دعم الطلاب علميًّا وثقافيًّا من خلال معارض الكتب، ومعارض الملابس التى تمثل مدخلًا اجتماعيًّا جيدًا للتخفيف من الأعباء المالية على أسر الطلاب، وتوفير نمط من الرعاية غير المباشرة لهم، تسهم فى تضامن الأسرة الجامعية وتكافلها وتكاملها.

وخلاصة القول أن الاتجاهات البناءة التى تنتهج الجامعة سبلها ينبغى أن تنمو وتطَّرد بعيدًا عن حالات التدهور السلوكى والقيمي، التى يعكسها الموقف الطلابى – أحيانًا – حين نرى الطلاب يملأون شوارع الجامعة لعبا ولهوا وعبثا بما يتنافى مع المستوى المأمول للطالب الجامعي، فى الوقت الذى تبدو فيه المكتبات خاوية، وربما قاعات المحاضرات.

وقس على مثل هذا الموقف الطلابي- أحيانا- فى عدم احترام الحس الجمعى العام، أو تجاوز منطق صداقة البيئة وتقدير منزلة المجتمع والاعتراف بدوره فى التشكيل الإنساني، والأخطر منه ما قد يتهيأ للشباب من ملتقيات تزيد الأمر سوءا عبر الكافتيريات أو منافذ بيع المسليات، وربما الأدوات المنزلية، أو الملابس الداخلية، أو أدوات الزينة للفتيات؛ وهذه وتلك ليس موضعها الجامعة بوصفها حرم العلم، وموضع الاحترام والتقدير لمنازل العلماء وطلاب المعرفة، وليس من المقبول جامعيا ولاقيميا تحت أى مسمى أو مبرر من الربحية أو غيرها أن تتنازل الجامعة عن تاريخها واحترامها؛ لتتحول إلى " بوتيكات " لبيع المنتجات الشعبية، وكأنها راحت صورة مصغرة من أسواق الموسكى وما يشبهها؛ الأمر الذى تأنف منه العقلية الجامعية، لاسيما إذا ازدحمت الأسواق بغير الجامعيين، أوتخلى أمن

الجامعة عن دوره فى اختلاط الأوراق، دون إدراك لمخاطر الأمور ونتائجها ودلالاتها وتداعياتها.

إن قدرًا من المراجعة المتأنية والنقد الذاتى بات مطلوبا؛ لكى تستعيد الجامعة نقاء تاريخها العلمى ومنتدياتها الثقافية والفنية، بعيدا عن صور الابتذال والاهتراء والترخص التى تدفع الطلاب والكليات إما إلى المزيد من سلبية المشاركة العلمية والفكرية، أو مزيد من التحلل والتحرر السلوكى بما لا يحتمله السلوك الجامعى فى زحام المتغير العالمى عبر السماوات المفتوحة!! **فهل آن لنا أن ننطلق أولًا وأخيرًا من الصالح العام للجامعة، بوصفها المؤسسة العلمية الكبرى بما لها من الوقار والتبجيل وكل الاحترام؟!**



نتائج الحوار الثقافي

تُرى ما المتوقع من حوارنا الطويل حول ظاهرة الحوار الثقافي؟ وما النتائج المرتقبة من تتبع مستوياته ودراسة مساحاته، وتحليل أطرافه وآدابه وطبائعه النوعية ومقوماته وأصوله؟ وهل تقف المسائل عند حد إملاء الشروط، أو طرح الطموحات، أو تسجيل الآمال، أو – فى أحسن الأحوال– توصيف الحالة، وتشخيص الوضعية الراهنة – أو المستقبلية – لصيغ الحوار وآلياته؟!.

يبدو الأمر أخطر من هذا كله إذا تأملنا وجوب تفعيل نتائج الحوار بما قد ينتهى إليه من توصيات يجب وضعها موضع المساءلة، أو تحويلها – بقدر ما هو متاح– إلى مشروعات عمل قابلة للتنفيذ والدراسة والمتابعة، بعيدا عن التعقيد، وبمنأى عن افتعال المشكلات أو صناعة المعوقات.

هنا تبدأ الخطوة المهمة فى عالم الحوار، والتى يتوقع أن تتلوها خطوات أخر، ومنها على سبيل المثال :

أولًا : الوقوف على قراءة النتائج بدقة وموضوعية؛ بعيدًا عن الذاتية والانبهار بالذات أو الاستعلاء على الآخر، وبمنأى – أيضًا – عن اللُّهاث وراء ما يطرحه الآخر أو ما يمليه إملاء ربما يتنافى مع الهوية والخصوصية، أو احترام الكيان والشخصية القومية.

ثانيًا : تعزيز صيغ الحوار وأدواته، وتوجيه آلياته إلى ما هو نافع عبر نتائجه وحصاده بعيدًا عن الجدلية العقيمة، أو تزجية الفراغ، أو التعصب للرأى، أو محاولة

تعطيل فكر الآخر وأدلته أو دحض حججه وبراهينه أو إجهاض اجتهاداته.

ثالثًا : التركيز على رصد نتائج الحوار، وتحويلها إلى برامج عمل جادة تعرف طريقها إلى خدمة المجتمع العلمي، والارتقاء بالمستوى القيمي، بعيدًا عن الفوضى والمهاترات، وبعيدًا – أيضًا – عن ضجيج المزايدة والافتعال، أو المبالغة فى تصوير الحقائق.

رابعًا : النظر فى الدقة المنهجية الكامنة وراء الظاهرة الحوارية من حيث المقدمات والنتائج والآليات، وما بينها من سبل الاتساق والتجانس؛ بعيدًا عن قبح المواجهة، وبمنأى – أيضًا– عن مناطق الهجوم والتجريح، أو تحويل المحاور إلى خصم دون مبرر.

خامسًا : التوسع فى تحديد أسس منهجية الحوار من حيث دعم المرتكزات الكبرى التى ينطلق منها؛ وأساسها الاحترام والحرية والانفتاح والمرونة، مع امتلاك الأدوات وتجنب المرسل والمطلق والعام، أو التوجُّه إلى التقوقع فى نطاق الخاص على حساب العام.

النتائج كثيرة ومتشعبة، ولكل نتيجة أهميتها وخطورتها فى ضبط مسار الحوار الثقافي، الذى أصبح مطلوبًا – بشكل مؤكد – فى زحام كثرة الاتجاهات، وتضارب الأفكار، وإملاءات الفضائيات مع تضخم ثورة الاتصالات، وتدفق المعلومات بشكل يتطلب وقفة تأمل ومراجعة لكل ما هو قومى ووطنى وإنسانى فى سبيل تحقيق رؤية أوضح، ورسم خطوات منهجية دقيقة بعيدًا عن الارتجال والعشوائية، بمعزل – أيضًا – عن الفوضى والتجاوزات.

الحوار – فى حقيقة الأمر – حالة علمية لها بُعد إنسانى واجتماعى وقيمى وسلوكى يضمن صدق النتائج إذا ما حسنت أدواته وآلياته، كما يضمن صحة المنهج وسلامة الموقف إذا صحت معه الصيغ والمقاصد والنوايا، قبل أى اعتبار آخر.

ونتائج الحوار – فى حقيقتها– تظل مطلوبة باعتبارها مدخلًا مؤسَّسًا لجديته وتواصله وصدقه وعمقه، دون انحراف به إلى المزايدة أو الاستخفاف، أو الانحدار من خلاله إلى مناطق تصفيه الحسابات، أو صناعة إسقاطات لاتؤمن نتائجها ولا يصح الوقوع فيها أساسًا.

قضية الحوار ونتائجه تستحق من الدراسات التربوية والاجتماعية والنفسية والعلمية ما يتوقع من أهميته وضروراته، دون تجاوز أو قصور بها يعزز حقول دراساته وتعددية الآراء حول مساحاته، وضمان تحويله إلى مشروع ثقافى ناجح بكل المقاييس.

٥

الحوار الدينى وتجدُّد الخطاب

نزلت الأديان لتصحيح مسار البشرية كلما ضلَّت سبلها، وتقويم المعوج من الفطرة القويمة كلما أصابها الإفساد، وضبط حركة الأحياء والحياة، وتقنين العلاقات وإحكامها فى صورتها المتوازنة التى تتمتع بالبقاء والمرونة مع تطور حركة المجتمعات دون أن تعرف نهاية للصلاحية.

وجاء الإسلام ليخرج الناس من ظلمات الجاهلية والوثنية وشريعة الغزو والبطش وقهر الآخر إلى نور الهداية واحترام العقل واحترام حرية الإنسان، وتقدير حقه فى الحياة، والحوار والفكر، فكان الخطاب الدينى من قبل رسول البشرية الأعظم صلى الله عليه وسلم منذ دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادل أهل الكتاب بالحسنى، وكان بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، وكان أصحابه أشداء على الكفار رحماء بينهم، فكانوا أطلاح عبادة ومصلحى دنيا، عرفوا الجهاد انتصارًا لدينهم، وعرفوا السلم مدخلًا إلى استمرارية الحياة وضمان رقيها، مما يتسق مع دعوة الإسلام إليه، فإن جنحوا للسلم وجب الجنوح له، وهو ما يتسق مع خطاب الإسلام الدائم بعدم المبادأة بالعدوان – والبادى أظلم – حتى مع دعوته لإعداد القوة، فهى القوة المشروعة للدفاع عن النفس والأرض والعرض والمال والحمى والمعتقد، وهى القوة الضامنة لسلامة المؤمن واحترام منزلته، فكان المؤمن القوى خيرًا وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، لأنه قادر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وكان مطلب القوة مرهونًا صراحةً برد العدوان عملًا بتعاليم السماء، وانطلاقًا من سماحة الدين، حتى مع المشركين [وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه]، ومثل ذلك كان الموقف الحضارى الرائع للإسلام من حرية اختيار العقيدة [وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سرادقها ...]

وهو اختيار ينم عن أصالة هذا الدين، ورحابة إنسانيته التى لم تعرف الجور، ولم تفترض ظلم للآخر، ولكنها رفضت - وهذا طبيعى - أن يقبل المسلم القهر أو يصمت إزاء الظلم، فالمؤمن كريم النفس عزيزها، فإن اعتُدى عليه وجب رد العدوان بمثله عملًا بالأمر الواضح والنهى الصريح [ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين] [فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم]، وعلى النهج نفسه - أيضًا - كانت دعوة الإسلام إلى العدل المطلق [ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى]. إلى غير ذلك من القيم الإنسانية الرفيعة التى انطلق منها الإسلام منذ وحَّد بين أجناس البشر وألوانهم، متخذًا من التقوى معيارًا للتفوق، ومن العلم مقياسًا لتفضيل أهله، ومن العقل مدخلًا صريحًا إلى الإيمان [أفلا يعقلون ، أفلا يتفكرون] مع تكريم خاص لأولى الألباب، وأولى النهى، ودعوة متكررة إلى التدبُّر والتأمل فى أسرار الكون فى كثير جدًا من فواصل الآيات القرآنية.

وتظل القيم الكريمة مرتبطة باحترام إعمال العقل، فإن أخطأ صاحبه فله أجر، وإن أصاب فله أجران، فكانت حرية الإنسان مقرونة بإعمال أفضل ملكة وهبها الله للإنسان دون سائر المخلوقات، ولعل فى إعمالها ما يضمن له سبل النجاة من مهالك الدنيا ومزالق الأحياء.

كان منطلق الخطاب الدينى بهذا الشكل بادئًا من : منطق المساواة، حرية الإنسان، احترام مساحة التعامل بين البشر شعوبًا وقبائل، رفض الظلم، ورفض الإذلال، نشر منطق الرحمة والرأفة، التكافل مع الجماعة، احترام العقل، إعمال

الملكة، تعزيز العلاقات عبر منظومة الأحكام وصيغ التشريع التى ترقى بالإنسان إلى أعلى منازل إنسانيته، فكان الدين هو المعاملة. وفى هذا المعيار ما يضبط – بالفعل – كل سلوكيات البشر؛ فالمسألة الدينية ليست مجرد طقوس وشعائر، بل جاءت عبقرية الخطاب الدينى فى ربطها جميعًا بالعمل [وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون] وكان العمل قرينة الإيمان [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...] [إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ...] وهو قياس محكم خاصة حين تلتقى فى معينه النوايا من حيث الصدق والسلامة، فكان منطق النية محسوبًا على المرء أو له [إنما الأعمال بالنيات ...] ثم كانت ترجمة النوايا عبر أفعال وسلوك فكان مسلك الرجل محكومًا عليه بالإيمان إذا اعتاد المسجد ... وكان هذا هو القياس المنضبط لقانون الأشياء، الموائم للمنطق الصحيح.

وبدت فحوى الخطاب الدينى فى الإسلام مقرونة دائمًا بحب الآخر منذ تنادى أصل الخطاب بأن الله خلق الناس من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، ثم جعل معيار التقوى أساسًا للمفاضلة بينهم . ثم كانت دعوة المصطفى عليه السلام لأن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه وألا يتحاسد الناس، وألا يتباغضوا وأن يكونوا إخوانًا فى الله تجاوزًا لعصبية الدم وروابط العنجهية الجاهلية، وانطلاقًا من وحدانية المعبود ووحدة أصل الخليقة، واحترام الروابط الروحية.

لنا أن نتأمل حال المجتمع إن حدث هذا التجدُّد للخطاب الدينى الذى يرقى به إلى أعلى درجة يتوقعها أبناؤه، بدءًا من الدعوة المؤكدة بحسن العلاقة بين البشر بلا تباغض ولا تحاسد، ولا كراهية، ولا تنافر، ولا فحش، ولا بذاءة، ولاسوء خلق. فالحياء شعبة من شعب الإيمان، ثم إن دعوته إلى حب الآخر تظل شاخصة فى كل مطلب للحياة؛ بدءًا من الجار الذى وصَّى به جبريل محمدًا ـ عليه السلام ـ حتى ظن أنه سيورثه، وانتقالًا إلى مطلب إفشاء السلام، ونصح القرناء، والرحمة بالضعفاء، وفك أسر العاني، وإعانة ذوى الحاجات، والوفاء بالعهود، وإكرام

الضيف، ونجدة المستغيث، وإغاثة الصريخ، والصفح عن السفهاء، والعفو عند المقدرة، وسلامة اللسان، وطهارة اليد مما ترجمه الخطاب الدينى مُجملًا فى " حسن الخلق " و" الدين المعاملة ".

تواصل الخطاب الدينى – فى عصر المبعث وما بعده – فى مساق التركيز على مجمل الأبعاد الإنسانية التى انطلقت من تحليل وافٍ للقيم الرفيعة التى دعا إليها الإسلام، ومنها جاء تأصيل البُعد الحضارى الذى انتشر معه منذ انبثق نوره من شبه الجزيرة، ليُعلِّم الإنسان فى أقصى الأرض وأدناها بين المشرق والمغرب كيف يكـون إنسانًا، لا أن يتحـول إلى وحـش، أو بلطجي، أو إرهابي، أو دموي، أو عدوانى ! ولا أن ينطلق من منظومة الغطرسة أو الصلف والكبرياء، أو الفجور، أو التعنُّت والقهر، أو استعباد خلق الله، أو كراهة البشر، أو العربدة على حساب الأبرياء على النمط الذى انتهجته وأسست له الحركات الاستعمارية التى سارت فى الاتجاه المضاد لهذا الخطاب عبر اندفاعات هجماتها الشرسة على أنحاء شتى من العالم الإسلامى على فترات متعددة من حقب التاريخ قديمه وحديثه على السواء.

فالإسلام دين التواضع والحب، وله من سلامة الفطرة ما يحتاج إلى تعريف الغرب بحقيقته وجوهره، بعيدًا عن التعقيد والتقعر، أو التبغيض والتنفير، فلو كان رسوله المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فظًّا أو غليظ القلب لانفضَّ الخلق من حوله، ولو لم يكن كما زكَّاه ربه الأعلى " على خُلُق عظيم " لما ساد هذا الدين وانتشر ما شاء الله له أن ينتشر بين أطراف الأرض.

هكذا يكون سلوك المسلم حبًّا للآخر واحترامًا لمساحات التلاقى معه، والتفاعل مع فكره، والتداخل مع نتاج عقله، والرقى فى مجادلته، أو مناظرته أو مساجلته، وهو ما كان سمتًا للثقافة العربية فى تثاقفها وتلاقيها حوارًا مع كل ما حولها بعيدًا عن افتعال التصادمية أو الصراع؛ الأمر الذى ينبع عن دور علمائنا الأجلاء من ذوى الاختصاص والقرب من كتب التفسير وكتب الحديث لأن يُفقهوا البشرية، وأن ويُعرفوها حقائق الإسلام وجوهـره، وكيف كان – ولايزال

– دين سماحة وكرم خلق بالمعنى الشامل لهذا كله، منذ صدرنا للغرب الأوربى فى عصور ظلامه فكر ابن سينا، وابن رشد، والكندي، والفارابي، وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم، والإدريسي، والخوارزمي، والرازي، والجرجاني، والبخاري، وابن النفيس وغيرهم كثير كثير .. !

أن يتطور الخطاب الديني، وأن يتشكل بلغة عصرية واضحة للأجنبى مفهومة وواضحة لدى الآخر، غربيًّا كان أو شرقيًّا، فهذا مطلب حضارى يتعلق من إيقاع المرحلة، ثم يرقى إلى حد الضرورة، دون قصد إلى تبشير أو أسلمة، ولكنها الدعوة – فقط – إلى تجلية الحقائق، وكشف الأباطيل، وبيان الزيف الذى يحيط بالإسلام إما من معاند، أو مغامر، أو جاهل، أو مغالط، أو حاقد، وإما من غير أهله قصورًا أو عجزًا.

نحتاج اليوم إلى تفعيل هذا الخطاب كما فعَّله رسول الدعوة فى حجة الوداع يوم أن وضع للبشرية قانونًا شاملًا، يبدأ من تحديد علاقة الرجل بالمرأة، وينتهى عند حدود سياسة الراعى مع الرعية، ومرورًا بقضية الإنسان مع أخيه الإنسان عبر وتنظيم قضية الثأر والربا والأحكام، وغيرها من مشكلات الحياة التى بثَّها الخطاب المحمدى فى لغة بليغة واضحة وموجزة كشفت جانبًا مما أوتيه من جوامع الكلم، وحددت موقع سنته الشريفة من حقيقة التشريع الدينى القويم.

كتب واضحة، ودراسات مبسطة تُترجم وتحكى قصة هذا الدين فى يسر وسهولة؛ بدءًا من حضِّه على الفضيلة، وكراهة الرذيلة، حيث تشير إلى ذلك دعوته الدائمة إلى أرفع القيم وأرقى المثل التى بات مطلوبًا أن نقربها إلى ذاكرة الناس فى عصر طغيان المادة وتجاهل النماذج العليا. نحتاج المزيد من تجديد الخطاب الدينى القويم بعثًا لسيرة السلف الصالح ممن أسَّسوا له، وأصَّلوا لمقوماته بعيدًا عن مزايدات المضلِّلين والمزيفين، أو المخادعين والمراوغين والمنافقين ممن يستغلون الموجة فى توجيه المفردات أحيانًا فى اتجاه خاص بغية الإساءة إلى الإسلام، أو التنفير من صورة المسلم الحق، وكأنما مزَّقوا السياق، أو تجاهلوا – أو جهلوا – الدلالات

المعمقة التى يعكسها الخطاب الدينى الصحيح فى أجلى صوره، وأكثرها وضوحًا وصراحة وعمقًا، إلى التأكيد على عالمية هذا الخطاب مكانا، واستمراريته زمانًا بحكم مرونته وعمقه، وأصالته وتميُّزه وسماحته وعصريته معًا، وفى ظلال ذلك كله فليتنافس المتنافسون.

ويبقى السؤال : ماذا لو تجدَّد الخطاب الدينى كما جددته مدرسة المنار الإسلامية وغيرها من مدارس الفكر الكبرى ليتواءم مع طبيعة المرحلة التى ازدحمت بمفردات المعجم البشرى البغيض، وقد بات يرزح تحت ضغوط المادة بكل ما جلبته للبشرية من صور الشقاء والشقاق والخصومة والعداء !

ربما كان فى تجدُّد هذا الخطاب إنقاذ للإنسانية من رداءة واقعها المتردى الذى لم نعد نسمع فيه إلا جرائم الإنسان ضد أخيه الإنسان، قتلًا أو خيانة، أو غدرًا أو كراهيـة وبغضًا، أو عدوانًا حتى على المحارم، أو سرقة أو رشوة، أو إفسادًا فى الأرض، أو مشهدًا من مشاهد الفساد والبغي.. وهو ما يتنافى تمامًا مع منطوق صحيح الخطاب الديني، ومقاصده الحقيقية، ومراميه الموجبة التى أوجزت خط الدفاع عن الإنسان فى " الدفع بالتى هى أحسن " حتى يضمن تحوُّل عدوه إلى ولى حميم.

والمأساة الحقيقية أن معجمنا السلوكى على مستوى الأفراد والأمم قد ازدحم بكل ما هو سئ من جراء الاستجابة لبث السماوات المفتوحة، بدلًا من الالتزام بهدى السماء، ومنطق الأنبياء، ومنطوق الآيات ! بدءًا من غيبة النفس اللوَّامة التى تُراجع وتصحح دعوة النفس الأمَّارة بالسوء، وغابت النفس المطمئنة عنا ـ أو كادت ـ وانتقالًا إلى صورة الزيف والنفاق، ومخادعة الناس، وانتشار الكذب، وغيبة الضمير (وهى غيبة التقوى) والاستخفاف بمقدرات الإنسان، فعادت البشرية إلى شريعة الغاب ـ أو قاربت ـ وعاد منطق الغزو والتلذُّذ بقهر الضعفاء، حيث يرد انتهاك محارم الإنسان تحت طغيان القوى والأرعن، وهو ما يتنافى تمامًا مع إنسانية الإسلام التى تحرم قطع شجرة، أو قتل طفل، أو شيخ ،أو امرأة، على النحو

الذى أوصى به رسول البشرية قادة جيوشه، وسار على منهاجه خلفاؤه الراشدون رضى الله عنهم.

وكان المجتمع الإنسانى قد انتكس فعاد إلى الإجرام فى أبشع صوره عبر الاستخفاف بحقوق الإنسان وامتهان كرامته، أو تخريب العمران على طريقة التتار من أعداء الحضارة وخصوم الإنسان، وهو ما شهد امتداده فى زحام حضارات زائفة، ومدنية مراوغة، وواقع بشع يشهد من صور البربرية والوحشية والهمجية أسوأها، وأشدها قبحًا، يندى لها جبين الإنسانية وضمائر العالم لا تتحرك تجاه منظومة الحق، والخير، والجمال، وحسن الخلق التى التقت عليها ديانات السماء.

يبدو أن غيبة الخطاب الدينى الصحيح قد حولت الإنسان إلى وحش كاسر، لا يعرف الرحمة التى هى أصل من عقيدة الإسلام، ولا يحترم الآخر ولا يحبه، وعندئذ تحول المعجم (البشري) إلى منعطف خطر سيطرت عليه مادية الحضارة بكل ما فيها من قبح أخلاقي، أو تبجحات سلوكية، أو تجاوزات ومزايدات، أو تغييب للقيم التى يتشدق بها دعاتها من أهل الزيف ومروجى الشعارات، أو يكتفى بها أدعياء حقوق الإنسان التى أُهدرت حتى فى أعلى درجات السلم الحضاري. مما يستدعى حتمية مراجعة ما يسمى شكلًا بالمنظمات العالمية، وما أفرزته من وهم القوانين والضوابط وبنود الشرعية الدولية والتى من واجبها أن تحمى حقوق الضعفاء وتضع قيودًا على طغيان الجبابرة والأقوياء.

يتشدق البعض الآن بإسناد الإرهاب إلى الإسلام ظلمًا وبهتانا. والحق أن الإسلام منه براء، وعلى علمائنا وأزهرنا ومجالسنا العلمية وبحوثنا وخطبائنا أن يؤكدوا ذلك عبر كتب علمية مبسطة تترجم؛ لتقرأ فى الغرب الذى تجاهل حقيقة الإرهاب الذى لا يعرف دينًا ولا زمان ولا مكان، فإذا به يلصق بالإسلام ما ليس فيه، كما يلصق بشخصية المسلم الحق ما لا صلة لها به، وإلا ما امتدت دولته من جبال البرانس إلى الصين عبر حركته الحربية والتجارية والفكرية سواء بسواء.

لقد أصبحت لغة العالم الآن شاخصة فى منطق الصراع أو بالصمت، أمام مشاهد وخوارم المروءة، واختراق القانون، وأصبح احترام القانون الدولى ضربًا من الهراء فى مقابل التجرؤ على اختراقه، أو القفز على قرارات الشرعية من سفاكى الدماء ومجرمى الحروب. فأين القانون ـ إذًا ـ وأين الخطاب الحضارى الذى يدعيه إنسان القرن الجديد فى ظل ثورات العلم وتقدم الفكر والثقافة وتراكم المعرفة ؟! أم أن جحافل العصور الوسطى مازالت مطروحة والعالم إزاءها أصم أبكم لا يرى لا يسمع لا يتكلم .. ولا يعلق ولا يفعل ؟!

ليتنا نستطيع إقناع العالم كله برونق خطابنا الدينى حيث نتشبث بمعطياته ونجدده ليحترم فى الإنسان حريته وحقوقه وإنسانيته، ويضمن له حرماته، وعرضه، وماله ودمه، ووطنه، ويقنن علاقته بالآخرين بعيدًا عن منطق الإرهاب والتدمير الذى تندفع منه خطابات أعداء الإنسان.

لقد حرر الإسلام الإنسان كلما جعل تحرير الرقيق فدية فنقل البشرية من العبودية وقهر الإنسان وفجوره فى ظلمه لأخيه الإنسان، وحيث بدا المعجم رديئًا يزكم الأنوف، يحتاج إلى تنقية تعيد توازن الأشياء من منطق الخطاب الدينى الواضح إذا استجاب له أدعياء التحضر، فلم يصموا آذانهم كما صنع مشركو مكة فى عصر المبعث حين أصروُّا على عبادة الصنم أو الوثن تشبثًا بما كان يعبد الآباء !!

نحتاج إلى خطاب دينى جلى يقف من الدين عند جوهره وصفاء مصادره وأصوله، يوضح للناس أصول حياتهم. ويصحح لهم مناهج فكرهم وطرائق علاقاتهم، ويكشف مقومات فهمهم بلا تعقيد أو غموض، لعل الخطاب يؤتى ثماره فى تنمية وعى المخاطب وإثراء فكره، وتعميق فهمه مما يؤصل لمنطق الانتماء والولاء للمعتقد الدينى عبادةً وعملًا وسلوكًا ومنهج حياة.

إن العبء الآن على عاتق علمائنا الأجلاء يبدو أصعب من أى وقت مضى، فقد آن لهم أن يعيدوا النظر فى تطوير الخطاب العصرى الذى شوَّهه البعض بجموده

الفكرى ورداءة أدائه، مما يحتاج إلى تقويم وتصحيح للمسار، وهو ما يؤهلهم لأن يؤدوا الأمانة على خير وجه، انطلاقًا من تجديد الخطاب الجامع بين عطاء الموروث والمستحدث فى صيغة من صيغ الانتقاء والاستصفاء الضامن لاصطناع المصالحة الهادئة بين تراثنا وفكرنا العصرى المتجدد كل يوم مما يمكن تصوره من خلال زوايا محددة أبرزها :

أولاها : تيسير لغة الخطاب الدينى مع البسطاء والعامة من خلال خطباء المساجد فى معالجة قضايا عصرية، والبحث عن حلول لمشكلات الحياة من خلال القياس، والاستعانة بعطاء النص الدينى من مصدرَيْه المقدسين : الكتاب والسنة. ولعل انخراط الخطيب فى هموم الناس ومشكلات الواقع تقرب المسافة بينه وبين جمهوره، فيسيطر على ضميره ووجدانه وفكره، ويبعث فيه الأمل فى إتقان العمل وصناعة واقع جديد ومستقبل أفضل.

ثانيتها : الارتقاء بلغة الخطاب الدينى مع المثقفين والخاصة الواعية لأصول المنهج ومقوماته طبقًا لمستوى المدرك الفكرى لدى هذه الفئة، مما يستدعى معها المزيد من التفاعل والمداخلة، والاعتماد على الجدل العقلى الناضج بعيدًا عن المساجلات والمطارحات التى قد تقترب بنا من عالم السفسطة أو الاستغراق فى الجدلية الفلسفية بلا مبرر.

ثالثتها : الانطلاق من تحديد المصطلح المستخدم فى الخطاب الدينى بشكل جيد ومقنع، فلا داعى لخلط الأوراق أو خلط المصطلحات، أو تداخل الدلالات بما قد يفسد المفاهيم، أو ربما يحول دون فهمها، والوعى بأبعادها الحقيقية إلى قنوات خادعة أو واهمة يحسن تجنبها.

رابعتها : ضمان تعدُّدية هذا الخطاب بتعددية المستوى الفكرى والمعرفى والنفسى والوجدانى للمتلقين، وهو ما يمكن ضبطه إعلاميًّا فى أُطُر التثقيف المنظم للشباب أو الشيوخ، للأميين أو المثقفين، مع مراعاة احترام هذه التعددية فى مواقع مصادر البحث ذاتها عبر الإذاعات المتخصصة، أو الصفحات

المتخصصة بها تنتقيه من مادة تثقيفية قادرة على الجذب والتشويق إلى جانب الإقناع.

خامستها : ولعله أهمها فى هذه المرحلة على وجه التخصيص، وهو الاهتمام والتركيز على نشر الخطاب الدينى فى صورته المطوَّرة عبر أنحاء الدنيا؛ ذلك أن مخاطبة الأجنبى تحتاج – بالتأكيد – آليات مختلفة عن مخاطبة العربى بما يستدعى صورًا من الوعى بهذه الآليات، والتمكن منها، والصدور عنها قصدًا إلى إصلاح ما أفسدته الأحداث الأخيرة من تشويه صورة المسلمين، أو التجنى على صورة الإسلام فى أذهان الأجانب؛ **الأمر الذى يحتاج إلى المزيد من الحكمة والدقة فى إعادة صياغة الخطاب، وإعادة طرحه بتمعن وتأن وجلد يضمن له سلامة الإنجاز وصمته بما يحيله إلى مشروع تثقيفى له منهجه وأصوله ومقوماته، وله أيضًا تداعياته الإيجابية بكل المعايير.**

٦

الحوار وأبواب الاجتهاد

هذه هى الحقيقة الكبرى التى انطلق منها الفكر الإسلامى فى دعوته الدائمة إلى التدبُّر، التأمل، التفكر، التعقل مع تكريم خاص لأولى الألباب وأولى النهى لأنهم يتفكرون، ويتدبرون، ويعقلون، ويتجادلون بالحسنى، ومن ثم فهم يجتهدون.

تبقى المسافة واسعة بين الاجتهاد حين يُبنىَ على أصول وأسس ومقومات وضمانات، وبين منطق الفوضى الذى قد يبيح فيه كل إنسان لنفسه أن يزعم ـ زعمًا ـ أنه مجتهد، أو صاحب الحقيقة المطلقة؛ ويتحول الأمر ـ آنذاك ـ إلى تهريج رخيص، أو مزايدة مهترئة على حساب المقدسات سواء فى فهمها أو فى تعريف الآخر بها.

وهذا هو الحد الفاصل بين أبناء اللغة الأم حين يفسرون النص القرآنى الكريم ـ مثلًا ـ وقد امتلكوا زمام لغتهم وسيطروا على دلالاتها، واستوعبوا صورها ومجازها وتراكيبها، وبين المستشرقين حين يتوقفون عند النص القرآنى فيختلف عطاؤهم التفسيرى كثيرًا جدًّا عن العرب بحكم اختلاف درجة الوعى بين ابن اللغة وبين مكتسبها ومتعلمها.

ولعل هذا المنطلق يقارب فكرة ترجمة الشعر التى تفقده أخص جمالياته فى لغته الأم تصويرًا وتقريرًا على السواء، وهى مسألة مدركة قديمًا وحديثًا فى آن؛ فقد تنبه إليها الجاحظ فى القرن الثالث الهجرى لتمتد الرؤية عبر ما تردد حول القضية نفسها على المستوى النقدى فى عصرنا.

من هذا المدخل يصبح من حقنا أن نتأمل ظاهرة التخصص العلمى التى نحترمها ونقدرها، ونُجل أهلها فى عصر التراكم المعرفى المذهل الذى نعيشه، والذى يذكرنا بمطلب الجاحظ القديم فى طموحه إلى تفصيل موسوعية فكر العالم من حيث إلمامه من كل علم بطرف، وهو المطلب ذاته الذى ترنم به الدكتور طه حسين ورفاقه من مؤلفى " التوجيه الأدبى " فى منتصف القرن الماضي.

ولكن هل تسمح ظروفنا المعاصرة بالاكتفاء بهذا الطرف من كل علم لتكوين المثقف فى صورته المثلى، أم أن الأمر يمتد إلى إبقاء احترام مطلب التخصص وتعميق الفكرة، وتجاوز أفقية العلم إلى رأسيته وتأصيله ؟

هنا نجد العلماء فى كل تخصص شديدى الغيرة على مناطقهم التخصصية، باعتبارهم أهل الفتوى والرأى والنظرية والخبرة بحكم وعيهم بأسرار العلم وخفاياه وإدراكهم اللُّباب، فإن تركوا لغير المتخصصين منه شيئًا فهو القشور أو النتائج التى قد يفيد منها الآخر دون ادعاء قدرته على تغييرها، أو الإضافة إليها لأنه من غير أهل الاختصاص الدقيق.

من هنا يأتى مطلب الاجتهاد فى العلم فى كل حقوله ومجالاته مرتهنًا بمقومات وأسس وأصول وقواعد، ولا يترك الأمر فيه فوضى للعامة ـ مثلًا ـ أو لصغار المثقفين للإدلاء بدلائهم فى نظريات العلم أو أطروحاته أو مشكلاته، أو العبث بنتائجه وتجاربه أو حتى مقدماته : فهذه منطقة تظل محرمة على غير العالم وهى حل لأهلها فحسب، وهذا حقهم الطبيعى بحكم التخصص.

يقودنا هذا المدخل الطبيعى للحقائق والأشياء إلى حتمية احترام العلماء، وإجلال منازلهم، ومنهم ـ بالتأكيد ـ وفى صدارتهم أهل التخصص الرفيع؛ حين يتصل الأمر بالنص القرآنى الكريم تفسيرًا وإبانة من خلال ضرورة امتلاك أدوات لغوية، وبلاغية، وأدبية، ونقدية، ومجازية وأسلوبية، إلى جانب كم ضرورى من الإلمام بالعلوم المتعلقة بأسباب النزول وعموم الأحكام أو خصوصيتها، أو غيرها

من المدركات الواجبة والمقاصد الضرورية لدى أهل التخصص فى الفقه والشريعة والتفسير وعلوم الدين المتعددة، التى سار عليها السلف وجدَّد فيها وأضاف إليها الخلف جيلًا بعد جيل بقدر ما امتلك من أدوات وثقافات، آذنت له بالإضافة وتجديد الرؤى والأفكار.

وعند هؤلاء ـ بحكم أدواتهم ـ يصبح الاجتهاد واجبًا عليهم، وحقًّا لهم، وتظل ضفاف هذا الاجتهاد مبنية على مدى فهم أبعاد النص واستقراء دلالاته، واستقصاء مراميه، وبيان مقاصده وتفسير صوره ومشاهده بعد القراءة والتمعُّن والفهم والتأمل العميق، لا أن يبدأ الأمر من فراغ؛ ذلك أن البداية من فراغ ستظل علامة على العجز عن جدة قراءة الآخر أو مناقشة اجتهاده، أو القصد إلى تجاهله، أو حتى الجهل به، أو التنكر له، أو رفضه بلا مبرر، وجميعها صيغ غير مقبولة علميًّا، وجلُّها غير مأمون النتائج لأنه بمعزل عن موضوعية العالم الحق وثقافته الضرورية.

من هنا يبدو للمجتهد الحق فى أن يسأل نفسه : كم قرأت وكم حفظت من النص موضوع التفسير ؟ وكم ألممت بقضايا العلم وأحكامه ومصطلحه وأبعاده ؟ وكم أدركت من أسرار اللغة ومكامن عبقريتها وأدواتها ؟ وكم .. .. وكم .. ..

هذه تظل بمثابة السؤال العبقرى الدال على تميُّز صاحبه ورزانته فكريًّا، بعيدًا عن الاندفاع أو النرجسية أو الاستعلاء على الآخر، وكأننا أمام معيار النفس البشرية من حيث إعجاب كل إنسان بعقله، وكأنه وحده محور الكون، وبؤرة العلم ببواطن الأشياء ! بعيدًا عن التجانس ـ أو حتى الاختلاف ـ مع فكر الآخر، أو الاكتفاء بالانسياح فى أعماق الأنا، وهو ما قد يقبل فى الإبداع لا فى العلم !

بذا يتجلى الخطر فى تغييب الآخر الشاخص فى أية قراءة، وأى من صور الاطلاع والمعرفة، مما قد يزج بالإنسان فى مناطق المزايدة أو التشويش، أو التشويه أو التزييف أو التخبط أو نشر الجهل، وعندها يصبح اجتهاد الجاهل خطأً فى حقه

وحق دينه وتاريخه، وحق أمته. على عكس اجتهاد العالم الذى يحترم ثوابته ومقدسات دينه وتاريخه، ويتخذ من تراث أمته مدخلًا إلى إعادة صياغته والاجتهاد فى الحوار معه، ومن خلاله، ولا مانع ـ آنذاك ـ من إعادة تشكيله، وإعادة تقديمه، أو حتى تقويمه، والأصل فى ذلك كله اصطناع ضرب من المزاوجة بينه وبين إيقاع الفترة ومستحدثات تاريخ المرحلة، دون تلفيق للأشياء، فثمة بون شاسع بين التوفيق والتلفيق فى قضايا العلم ومناهجه؛ فالعلم أساسه العقل، والعقل هو المدخل إلى الحق والحقيقة إذا ما كان صحيحًا وفاعلًا.

يجدر بالعالم الحق أن يعرف قدره وأقدار الآخرين، فلا يجور عليهم فيظلم نفسه ويظلم الآخرين من خلال تضخم الذات، وتوهج الأنا، بما يعكسه من ضيق الأفق وتجاوز الأقدار أو تجاهلها، فمن استسلم لمجرد التوقع بأنه قد علم بكل بواطن الأمور فقد جهل الحقيقة.

إن القراءة السريعة والمهمشة حول كتاب أو ملخص أو موجز أو فكرة فى مساقات الفكر الدينى المتعددة لا تكفى ـ بالتأكيد ـ لإعطاء الكاتب الحق فى ادعاء الثقافة فى حوار مطلق أو مرسل، فلو كان الأمر كذلك لبدت المواقف غريبة غرابة من يعطى نفسه الحق فى الفتوى فى كل شئ دون أن يجيد شيئًا بعينه. لسنا فى عصر " الكشكول "، ولكننا فى عصر الجمع بين مطلب التعدُّدية الفكرية والتخصص العلمى الدقيق الذى يحترم فى الإنسان ـ أول ما يحترم ـ إنسانيته وحريته وفكره وعقله.

وإلا فهل يسمح الفلاسفة ـ وهم أكثر الناس دفاعًا عن العقل وانطلاقًا منه ـ للبسطاء والسذج من الناس باقتحام عالمهم وصياغة نظريات فلسفية يأخذون بها، على الرغم من زعمنا أن لكل فرد فلسفته ورؤيته للوجود ؟ وهل يسمح اللغويون ـ وهم أدق الناس فهمًا لأسرار اللغة ـ لغير المؤهلين أن يقتحموا سياج علوم اللغة والنحو العربى حتى يزعم جاهل مثلًا أنه مجدد حيث ينادى بنصب الفاعل ورفع المفعول لنقول إنه مجتهد ؟! وهل يقبل مثل هذا الطرح فى بقية العلوم ؟

الحق أن المسافة بين الاجتهاد والفوضى يجب أن تحترم احترام ما بين القشور واللباب فى محاور الفكر ومشكلاته، وإلا اختلطت الأوراق وارتبكت العقول، وتدهور الفكر فى غير معترك حقيقي؛ إذ إنه أول ما يجنى ـ آنذاك ـ فهو يجنى على شرف العقل ومنزلته.

لو كان الأمر كذلك لوجدنا فى تراثنا العربى خلطًا عجيبًا بين الشعراء مثلًا والمفسرين، فقد ظل المفسر مفسرًا، رغم اعتماده على الشعر شاهدًا على غرار ما كان من حَبْرِ الأمة عبدالله بن العباس رضى الله عنه. وفى عمق عصور العلم والفقه حاول الإمام الشافعى تبرئة نفسه من الشاعرية ضمانًا لمصداقيته عالمًا وفقيهًا (ولولا الشعر بالعلماء يزرى .. لكنت اليوم أشعر من لبيد) دون أن يزدرى الشعراء ولا الشعر، ولا أن يحقر من منازلهم إلا إذا تعالموا أو تجاوزوا أدوراهم، أو تحول العالم عن العقل والحق، إلى مجرد شاعر ربما لا تشغله الحقائق بقدر ما يشغله فيض الخيال أو إيحاء التوهم. فكانت الرؤية فاصلة بين منطوق الاجتهاد لدى البسطاء والعامة، وبينه لدى العلماء من أهل التخصص؛ الأمر الذى أفرز لنا من مدارس العلم ما أذاعته الثقافة العربية القديمة والوسيطة، بين أقاصى الأرض وأدانيها شرقًا وغربًا فى كل المعارف الإنسانية.

نحن نحترم العالم فى معمله احترامنا للتاجر فى متجره، وللأستاذ فى قاعة محاضراته، ونعطى كل ذى حقه من التوقير والإجلال، بعيدًا عن ركوب الموجات الزائفة، أو الاعتداد بالذات على حساب فكر الآخر عدوانًا عليه، أو افتئاتًا على رؤاه بدءًا من التمرد إلى الرفض أو التهكم دون استيعابه، أو نقده قبل نقضه. ذلك أن النقد تفسير أولًا ومعاناة وإعمال للملكات والأدوات قبل التقويم وليس العكس، ثم إن هذا العكس قد يمثل مدخلًا إلى خطأ الأحكام وخطأ الخطاب، بل قد يغلق باب الاجتهاد.

وانتهاء من هذا الطرح النظرى تبقى لنا عدة تساؤلات علينا أن نجتهد فى الإجابة عليها. ومنها إذا أردنا أن نجتهد :

ماذا قرأنا من حصاد تراثنا ؟ وماذا فهمنا منه، وماذا ألممنا به من مصادره ؟ وكيف تحاورنا معه ؟ وهل تقبلناه على علاته إن نقدناه وحللناه ؟ وهل أعدنا صياغة عطائه ؟ وماذا أضفنا إليه ؟ هل جددنا وابتكرنا ؟ أم اكتفينا بالهجوم والتجريح والازدراء والرفض ؟ هل كنا نصدر عن حب حقيقى للتراث وولاء له وانتماء ؟ أم اكتفينا بإعلان العداء ورفع راية العصيان ؟! هل فهمنا ووعينا وتسلحنا بقراءات كافية فى لغتنا ومكامن أسرارها ؟ وهل قرأنا وتأملنا منطوق علمائها ومفكريها وتاريخها الفكرى الطويل ؟ .... الخ.

الأسئلة كثيرة تنتهى بنا إلى حقيقة مؤداها أن باب الاجتهاد لم يوصد، ولن يوصد شريطة ألا يختلط مع باب الفوضى، وأن يظل سيل تساؤلاتنا متدفقًا حول موقعنا الحقيقى بين تعظيم الموروث وتوظيف آليات المعاصرة، والإفادة من مستحدثاتنا فى إحياء النافع والمفيد من كل ما أفرزته قرائح العقل العربى على مدار حركة التاريخ ! وهو ما يفسح المجال أمام عقول علمائنا لمزيد من الإضافة والتجديد، فهم رجال وأسلافهم رجال وليتنا نجتهد مثلما اجتهدوا دون الاكتفاء بالادعاء، ومن ثم وجب احترام المتأخر لاجتهاد المتقدم وجوب الاعتداد بما بناه الأول وأصَّل له.

ولا جدال فى أن كثيرًا من علمائنا الأجلاء قد قدَّروا منزلة العقل انطلاقًا من تقدير الإسلام له على غرار ما ردده الرازى فى رسائله حين طالب بضرورة الرجوع إليه ـ أى العقل ـ فى جميع الأمور واعتبارها به، واعتمادها عليه، ومضيها على مضائه وتوقفها على إيقافه، وهو ما صرح به أبو العلاء حين جعله ـ أى العقل ـ مشيرًا فى صبحه والمساء.

وكذلك كان موقف كثير من العلماء والفلاسفة والمبدعين فى تاريخ فكرنا العربى ولا أدل على تبجيل الإسلام للعقل بما حرمه من الخمر منعًا لتعطيل الملكة، أو إبطال قداستها التى بسببها سخر الله الكائنات للإنسان، فكان العقل أفضل هبة إلهية مُنح إياها.

فالعقل هو المدخل الأول للاجتهاد، ومن شأنه الإصابة والخطأ، ولكن بعيدًا عن الشطط الظالم حين يفتى صاحبه فى كل ما يجهل، دون احتراز أو تدقيق فيما هو بصدده من منطق الوعى بما بين الحق والباطل من مسافات تتطلب الدقة فى منطوق اجتهاد العالم، حين يرمى إلى الحق وبين اجتهاد غيره حين يقصد إلى تزييف الحقيقة.

سابعًا : الحوار والهوية الثقافية

١- الحوار الثقافى والهوية

٢- بين الإنسانى والتطبيقى (قراءة حالة)

٣- الحوار وهموم المواطنة.

٤- أصول الحوار فى تطوير المناهج

١

الحوار الثقافى والهوية

١ – تشخيص حالة :

من المؤكد أن تراث الأمة ـ أية أمة ـ هو جزء أصيل لا يتجزأ ـ أو يكاد ـ من عقلها وفكرها ووجدانها، وهو ـ بهذا المفهوم ـ من أغلى ممتلكاتها وعلى قائمة أرصدتها، باعتباره الضامن لصحة مسيرتها من حيث الائتمان على هويتها وشخصيتها، وسلامة كيانها وذاكرتها، ولعل هذا ما استشعره قدماء نقادنا منذ تصوروا أن كل شيء قد قيل، وأنَّ الأول لم يترك للآخر شيئًا، وهو ما ردده الشاعر القديم حين رأى نفسه ينسج القول على منهاج أسلافه لا يكاد يتجاوز :

ما أرانا نقول إلا معارًا   أو معادًا من لفظنا مكرورًا

وكذا كان ما ردده شاعر الإحياء وأمير الشعراء :

مثل القوم نسوا تاريخهم   كلقيط عى فى الناس انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرةٍ   يشتكى من صلة الماضى انقضابا

حيث يكفى الأمة شرفًا وواجبًا أن تخشى على بنيها وأجيالها من تداعيات فَقْد الشرعية والهوية والذاكرة، بما ينذر بالتهميش والضياع والفناء، أو تحقيق الانقطاع المعرفى تجاه الماضى بما ينذر بالتخوُّف من التماهى مع الآخر دهشة وانبهارًا فحسب.

من هذا المنطلق تتجلَّى أهمية تراث الأمة، وتعظيم ودوره فى توثيق تاريخها، وثمة فرق مؤكد بين ثقافة ضاربة بجذورها فى أعماق الزمن، وثقافة مرحلية تفتقد الكثير

من تلك الأصالة، وربما تحاول التعويض بتوظيف ثقافة القوة بإعلائها على قوة الثقافة، وترشيح قانون القوة على قوة القانون، أو تحاول طرح المتغير بديلًا للثوابت، مع محاولة المساس بكيانات الشعوب، أو التهريج الرخيص بمقدراتها، أو محاولة تجاهل معايير أصالتها ومصادر قوتها.

ومعروف عن تراثنا العربى ما تمتع به من عراقة وأصالة منذ تجاور قلم الترجمة مع قلم التأليف فى علوم الأوائل فى دار الحكمة التى أسَسها الرشيد فى عصر التدوين، ونماها وطوَّرها من بعده المأمون فى دار السلام. وهو جوار بدا كاشفًا بحق عن جوهر ثقافتنا التراثية التى اتسمت بالموسوعية إلى جانب التخصص، حيث كان علماؤنا يلمُّون من كل علم بطرف، كما اتسمت بالإنسانية والرحابة التى لم تتعصَّب خلالها للأجناس، أو الأديان، أو المذاهب.

ومن هنا كان لهذا التراث ما له من ضمانَات الانتشار والذيوع دون قهر أو جبر، حيث ألَّف العلماء العرب فى الكيمياء، والطب، والرياضة، والفلك، والجغرافيا، والتاريخ انعكاسًا لمعرفتهم الواسعة باللغات اليونانية، والفارسية، والهندسة، والسريانية وغيرها.

وبدا طبيعيًا للتراث العربى أن يؤصل للشخصية العربية صقلًا، ومعرفةً، وتكاملًا ومنهجًا، حيث لمعت أسماء شوامخه الكبار على غرار ما كان من ذيوع شهرة ابن سينا، وابن حيان، وابن النفيس، وابن الهيثم، والخوارزمي، والجرجانى وغيرهم من نجباء الثقافة الإسلامية وروادها، إلى جانب أصحاب الموسوعات الفكرية من أمثال الجاحظ، وابن قيتية وغيرها ..

كما بدا لهذا التراث الإنسانى أن تتجلى آثاره فيما تم نقله إلى الآخر الذى تعددت لغاته وأجناسه وأديانه، حيث بادر إلى المشاركة فى عمق ثقافتنا التى ارتقت عبر الروابط الروحية التى أزاحت العصبية وأسقطت العنصرية البغيضة بحكم ما جاء به الإسلام من مبادئ التآخى والتسامح.

وكانت جزيرة " صقلية " معبرًا لثقافتنا إلى الغرب الأوربى عبر إسبانيا وما جاورها، كما كانت الصلة التاريخية بفارس مدخلًا إلى التعرب الفكرى والثقافي، وعلى غرار ذلك كان حال الدولة العربية فى إقليم مصر فى فترة تعربها عبر مدرسة الإسكندرية ومنارات العلم والثقافة.

كما بدا التراث العربى كاشفًا عن عدة ملامح لثقافتنا العربية، منها :

أولًا : احترام التعددية الثقافة والانطلاق من تقدير أهمية وحدة الثقافة وتعدُّدية فروعها فى آن، وهو محاولة قراءة القاسم المشترك فى عمقه الإنسانى ودلالاته العلمية والثقافية.

ثانيًا : أمانة المرجعية وصدق التواصل بين أجيالها، لاسيما فى عصر التدوين، وشيوع مجالس العلماء بدءًا من الكتاتيب والمساجد، ووصولًا إلى قصور الخلفاء ومجالسهم الأدبية مع العلماء والنقاد، حيث كانت تناقش القضايا، وتحل المشكلات وتطرح المبادرات الفردية والمواقف الخاصة، وتتجلى الفروق الجوهرية بين العام والخاص.

ثالثًا : ميل ثقافتنا إلى الازدواجية بين العلمية والأدبية، فليس صحيحًا أنها ثقافة كلام، أو جدل، أو حتى إبداع شعرى أو نثرى، بقدر ما بدا منها فى علمية العطاء فى شتى فروع العلم ومجالات المعرفة الإنسانية التى انطلقت منها لكى تُعلِم الإنسان كيف يكون إنسانًا بكل المقاييس ومقومات المنهج.

رابعًا : ما تمتعت به ثقافتنا التراثية من الرحابة والعمق فى آن واحد، حيث بدت ثقافة رحبة واسعة الآفاق يعرف أقطابها أصول مناهج البحث العلمى التى أفادوا فيها نظريًا من الآخر، وتطبيقًا من خلال الواقع فى إعادة قراءته وصياغته وحل مشكلاته.

من هذه الملامح وما يشبهها، يظل مطلب الكشف عن تجليات التراث العربى وإسهاماته فى بنية ثقافتنا العربية مدخلًا أصيلًا إلى إحيائه وتجديده وإعادة قراءته

وصياغته حوارًا معه من خلاله، ودراسة له وتحليلًا لمصادره ومرجعياته من خلال مناهج عصرية جادة تحقق صيغ المواءمة والتوافق بين الموروث والعصرى دون تناقضات أو صراعات، بقدر ما يَتجلى من روح المصالحة والهدوء فى بنية الفكر والوجدان التراثى والعصرى معًا.

٢ – آليات التعامل :

على أن موقفنا من التراث ينبغى أن يتجاوز مجرد التوقف عنده، أو المباهاة بأقطابه وعطاءاته وإنجازاته، وصولًا إلى أهداف أخرى تتعلق بضمانات بقائه واستمراريته من جانب، وتحديث مناهجه وآلياته بمنطق مرحلى مناسب من جانب آخر، وهو ما يمكن أن نرصد منه عدة محاور :

أولًا : تحول التراث إلى مشروع قومى يتطلب من أبناء الأمة معاودة النظر فى قراءته من باب الاحترام والتقدير وإعزاز اجتهادات السلف بعيدًا عن منطق الاستعلاء أو الاستخفاف، أو الامتهان مما يفقدنا الكثير من الموضوعية وتغييب ثقافة الثقة بالذات، وتقدير منازل المرتكزات الكبرى فى تاريخ الشعوب بما لها من الأهمية.

ولكى يتحقق هذا الموضوع يتوقع من المؤسسات والهيئات العلمية أن تجدد المادة القرائية بما يُعرف بأساطين الفكر وأقطاب العلوم العربية فى فترة مدها وازدهارها، وهذا التعريف يظل المدخل الآمن لضمان ثقافة التواصل والانتماء فى أدق صورها، وأرقى منازلها.

ثانيًا : فتح أبواب الاجتهاد والابتكار فى القراءات التراثية من حيث الإحياء، والتبسيط والشرح، والتحليل، والتعليق، مع الانطلاق من روح عصرية مبسطة تقربه من نفوس النشء ووجدانه، وترسخ فى الذاكرة الوطنية صورًا من الأصالة والتجديد، مع تأصيل المستحدث والعصرى من خلال تعددية الرأى والأفكار بدءًا من استكمال تحقيق المكتبة العربية بما يضمن لها البقاء

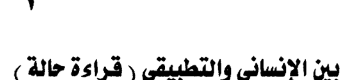
والاستمرارية، مع إعداد جيل من المحققين يدرك جيدًا حجم التبعة، وأمانة الرسالة، وخطورة المشروع التراثى فى زحام ثقافات الآخر، التى بات واجبًا الإلمام بها، ومحاولة اللحاق بمناهجها ونتائجها.

ثالثًا : ترسيخ عدة ثقافات فى نفوس الشباب والنشء تبدأ من فلسفة الثقة بالذات وضرورة تجاوز معطيات اليأس والإحباط التى قد تمثل عائقًا يحول دون تقدم الأمة، وتتأتى هذه الثقة من خلق التوازن النفسى والفكرى للموروث دون قصد إلى المباهاة أو الاستعلاء، ودون التماهى مع الآخر أو الاكتفاء بالدهشة والانبهار أمام منجزاته، وتكتمل ثقافة الثقة بثقافات الانتماء، والمواطنة، والتطوع، والعطاء إلى جانب ارتقاء الثقافات التربوية إزاء احترام ثوابت الأمة ومقدساتها وعدم التهاون فى المساس بأى منها.

رابعًا : محاولة التحوُّل المرحلى إلى إنتاج المعرفة والشراكة الفاعلة فى استيعاب ثورات العلم والتكنولوجيا والسعى إلى تنمية القدرات والمهارات بالشكل العصرى المناسب تجنبًا للجمود والتخلف والتراجع، ومحاولة للارتقاء إلى مرحلة التنافسية والجودة، التى بات المطلوب تحقيقها فى مواجهة تحديات المرحلة، دون تقاعس أو تردد.

خامسًا : تنمية الذاكرة الشبابية من خلال تيسير ما يقدم لها من المقروء التراثى، بعيدًا عن التعقيد والغموض وبمنأى عن مقومات التنفير وبواعثه؛ بحيث تستطيع الأجيال أن تضمن الرضا والقناعة بطبيعة التواصل والتكامل المنهجى بين السلف والخلف، بما لا يحجب روح التجديد والابتكار والإضافة بشكل علمى منهجى متجدد.

٢



بين الإنسانى والتطبيقى (قراءة حالة)

أصبح السؤال المطروح على الساحة التعليمية – تحديدًا – منوطًا بظاهرة خطيرة تجلت باطراد – مؤخرًا – فى انصراف الطلاب عن الأقسام العلمية إلى القسم الأدبى فى الثانوية العامة، وكأنهم يسيرون فى الاتجاه المضاد لمتطلبات المرحلة، بما تشهده من توالى ثورات العلم وتراكم المعرفة، فى نمط غير مسبوق فى العقود السابقة.

يحتاج السؤال – بالتأكيد – إلى البحث عن إجابات موضوعية ومنهجية، تنأى عن مسألة التخفيف أو محاولات التبسيط فى المناهج التى اتجه إليها وضع الدراسة الأدبية بشكل غير مقبول. ولعل الحل المطروح هنا قد يُغضب الوسط الطلابى الذى يتوقع مزيدًا من السطحية بعيدا عن روح الدأب والمجاهدة، أو البحث عن المعلومة فى سياق مصادرها ومرجعياتها المتعددة.

ولعل الإجابة الخاطئة ترتبط بتوافق المناهج الدراسية ـ إلى حد التطابق ـ بين القسمين العلمى والأدبى فى سياق المواد المشتركة بينهما، على غرار ما هو حادث فى اللغتين مثلا: العربية والإنجليزية، وقد تم الانصراف عن خصوصية دراسة اللغتين فى القسم الأدبى عنهما فى القسم العلمى بإضافة عمل فنى روائى أو مسرحى أو ثقافى يحقق التوازن لطالب القسم الأدبي، ويحقق نوعًا من الإرضاء النفسى لطالب القسم العلمى، حين يستشعر شيئا من الفروق عما يدرسه زملاؤه بالقسم الأدبى بما يحقق شيئًا من التوازن بين القسمين.

ومن المتوقع - أيضا - أن يعاد النظر فى مقررات القسم الأدبى، بحيث تصبح أكثر موسوعية مما هى عليه، لعلها تحقق التقارب بينها وبين المواد العلمية، بالإضافة إلى استمرارية مادة علمية – على الأقل - فى القسم الأدبى (الرياضة مثلا) وأخرى أدبية بالقسم العلمى (التاريخ مثلا) حتى لا يحدث الانفصام الذهنى فى غيبة المساحات البينية القائمة بالفعل بين معظم العلوم وتتضخم المشكلة من خلال إحساس الطلاب بسهولة اجتياز امتحانات القسم الأدبى أو سهولة الالتحاق بكليات نظرية تعتمد على المذكرات والكتاب الجامعى أو مذاكرة ليلة الامتحان أو شائعات عدم الدقة فى التصحيح، وسهولة النجاح بلا معاناة بالقياس إلى ما يعانيه زملاؤهم فى قاعات المحاضرات والورش والمعامل والمكتبات والساعات المكتبية، ودليل هذا مانراه من فوضى السلوك الجامعى لدى معظم طلاب الكليات النظرية فى مجالسهم بممرات الجامعة والكليات، أو سلوكياتهم العشوائية ثم نجاحهم آخر العام، فى مقابل ما يعيشه زملاؤهم من جِدية التلقى العلمي، وحرصهم على التفوُّق حتى فى مجالات الإبداع.

لعل هذه المفارقات تدعونا – عمليا – إلى إعادة النظر فى مجمل مناهج القسم الأدبى لتظل فى حالة تكافؤ مع نظائرها فى القسم العلمي، وعندئذ سيعود الطلاب إلى القسم العلمى بما يعيد التوازن المنتظر فى المرحلة الثانوية، ومع الخلاص من حالة التدهور التى آل إليها أمرها بتفضيل معظم الطلاب للسهولة مما لا يحقق آمال الوطن فى بناء جيل قادر على الإجادة والتنافسية والاستعداد الكامل للتعايش مع سوق العمل عبر آليات مناسبة ومهارات متميزة، تتجلى فيها القدرة على الابتكار والإبداع والتفوق.



الحوار وهموم المواطنة

فى سياق معايشة الواقع وطبيعة الجدل معه ومن خلاله، وبمنأى عن التهويم فى مثاليات ورؤى حالمة نستطيع تلمُّس العلاقة الحميمة بين الطبيعة النوعية لحواراتنا الثقافية المرحلية، وما يتطلع إليه المواطن المصرى فى الفترة القادمة، من خلال عدة زوايا واعتبارات:

أولًا : فى وجوب تعريف المواطن بمقدار معاناة المؤسسات التعليمية فى تعليم الطلاب بدءًا من الإنفاق الحقيقى بمتوسط يتجاوز ستة آلاف جنيه للطالب الجامعى لا يدفع منها الطالب شيئا على الإطلاق إلا رمزا، وهو ما يتراءى لنا بجلاء عبر كل ما نستقبله من دورات الطلاب الأجانب من جميع الدول الفقيرة أو الغنية والتى يسدد فيها الطالب جزءا من تكلفة تعليمه بما يضمن الجدية والمشاركة المجتمعية فى منظومة التعليم العام.

ولكن الدولة المصرية منذ أخذت بمبدأ المجانية لم تشأ التنازل عنه تحت أى من الضغوط الاقتصادية التى تحولت معها مسألة التعليم إلى قضية أمن قومى مما يجب على المواطن قراءته بموضوعية وحَيْدة ليسأل نفسه سؤالا موضوعيا: ماذا لو كان التعليم بمصروفات حتى الآن؟! فكم من كبار المثقفين ورواد المرحلة ربما فاته قطار التعليم فسار فى اتجاه مختلف؟.

ثانيًا : التوسع الدائم فى التعليم بما يتيحه لكل طبقات المجتمع دون تفرقة باعتبار المعرفة حقا طبيعيا للإنسان، وهو توسُّع يحتاج إلى الاستمراية تفاديا للزحام

والتكدس الطلابى الذى يجهض كل محاولات التحديث فى العملية التعليمية؛ الأمر الذى يتطلب – بدوره- مساهمة مجتمعية فاعلة وجادة بحيث تخفف العبء على المواطن والدولة على السواء، وهو ما يتحقق لو أصرَّ رجال الأعمال – مثلًا- على إثبات صدق رموز المواطنة وأصالة الانتماء مع الحرص على رد الجميل للوطن فى تنافسهم على المشاركة فى دعم التعليم وتطوير منظومة البحث العلمى على غرار ما تشهده الدول المتقدمة فى المسار ذاته، من خلال الجهود المجتمعية فى العطاء التعليمى والبحثي.

ثالثًا : البحث عن الحلول العملية لأزمة الدروس الخصوصية التى تفاقمت بشكل غير مقبول علميا أو إنسانيا، حيث نال من معيشة الأسرة المصرية، ومن عقل الطالب، ومن منظومة القيم الأخلاقية والعلمية الكثير؛ ويتطلب الأمر الكثير من الحلول بدءًا من ضبط الثقافة المجتمعية القادرة على هدم هذا الاتجاه، إلى محاولة إيجاد البدائل فى جدية أداء المعلمين بالفصول المدرسية أو المجموعات الدراسية، أو حتى فى جدية البحث عن تخفيف كثافة الفصول بما يعيد التوازن فى علاقة الطالب بالمعلم من جانب، ثم فى قدرة الطالب على الاستيعاب والمناقشة والحوار من جانب آخر.

رابعًا : التركيز على تفعيل الدور الإعلامى الناجح فى طرح حلول عملية لمشكلات التعليم والمجتمع، وهو ما يتأتى بعرض التجارب الناجحة، والنماذج المتميزة للأداء، مع التوسُّع فى مساحات البرامج التعليمية على القنوات الأرضية المتاحة للبسطاء؛ الأمر الذى ربما يغنى الطلاب – بالفعل- عن الدروس الخصوصية، بما يوفر على الأسرة المصرية كثيرًا من أموالها المهدرة، وهو ما يصون – أيضًا – عقول أبنائها عبر التحوُّل إلى عقلية امتحانية، بعيدا عن جدية المشاركة فى مسارات الفهم والتحليل والمناقشة والحوار.

خامسًا : تعريف المواطن بالطبيعة النوعية لرسالة المجتمعية للجامعة من خلال توجُّهها إلى المواطن والشارع ومواقع العمل، خاصة منها ما يقدمه الطلاب

أثناء الصيف عبر القوافل الشاملة، بما فيها من الرعاية الصحية، والوعى البيئى والحاسب الآلى ومحو الأمية وتنمية قدرات ذوى الاحتياجات الخاصة وغيرها من مشروعات تشغيل الطلاب، بما يعود عليهم بالنفع المادى ودعم علاقاتهم بزملائهم وتنمية مهاراتهم وقدراتهم، والإفادة من استثمار أوقات فراغهم، إلى جانب تعظيم روح الانتماء ورموز المواطنة.

فهل يدرك المواطن حجم ماتنفقه الجامعات – مثلًا – على طلابنا فى المدن الجامعية من ميزانية الدولة؛ أو ما يتم إنفاقه – بالفعل - على مشروعات التشغيل والقوافل من خلال تعاون الجامعات والمحافظات، أو ما يشبه ذلك من خدمات اجتماعية وثقافية عبر المعارض المتعددة التى تتبناها الجمعيات الأهلية مع الجامعات.

من كل هذه الاعتبارات وما يشبهها يستدعى الأمر إعادة صياغة الرؤى والأفكار والآليات والثقافة المجتمعية، تجاه برامج المواطنة، من خلال التعريف بكشف حساب الطالب والمجتمع من جانب، والطالب والدولة من جانب آخر، ثم الطالب والمؤسسة التعليمية بما يحدد له حقوقه وواجباته بشكل علمى دقيق، ومنهج عصرى أكثر تحديدًا وتحديثًا.

٤

أصول الحوار فى تطوير المناهج

قد نتفق أو نختلف حول تصنيف أولويات العمل الإصلاحى فى العملية التعليمية، ولكنا نتفق - بالتأكيد - حول ضرورته - وجوبًا - بما يتسق وإيقاع المرحلة، كما نتفق - أيضا - على أهمية خطوات الإنجاز الحقيقى فى مسيرة التحديث.

صحيح أن المعلم يحتاج التدريب حاجته إلى عدد من الدراسات والبحوث حول ضبط مستواه، وضمان صحة أدائه، وجودة عمله وإتقانه وقدرته على توظيف التكنولوجيا فى خدمة مناهجه، وصحيح - أيضا - أن الإدارة المدرسية تحتاج كثيرًا من التطوير والتحديث، ولكن المنهج يظل المؤشر الأول لتمثل المعطيات العصرية، والقدرة على الوفاء بالتزاماتها على وجه السرعة.

ولا يعنى تطوير المنهج ضرورات التبسيط، أو التخفيف، أو التسطيح بقدر ما يعنيه من تحقيق الأهداف المتوقعة من تفعيل الفكر الطلابى فى تعزيز روح الابتكار والحوار والمناقشة، وجدية الاطلاع، والاندفاع الجرئ إلى التحليل والنقد وإبداء الرأى وحرية التعبير.

ففى هذا السياق تتجلى جدية المدخل المبدئى، بما يليه من بقية المداخل حول الـمُعَلم، واللامركزية، والإدارة .

والحق أن وزارة التربية والتعليم قد حقَّقت إنجازا حضاريا ملموسًا فيما صنعته مؤخرا - على وجه الدقة وسرعة العمل - فى إعادة قراءة المناهج الدراسية،

وتشكيل لجان علمية على مستوى جيد من التخصص لفحصها وتقويمها، ثم الدفع بنتائج قراءاتها إلى لجان تنظيمية عكفت على المراجعة والتصحيح بما يحقق طفرة ملموحة، طالما كنا نحلم بها فى تحقيق النقلة النوعية لطلاب الثانوية العامة، ممن يستعدون ذهنيا ووجدانيا للانخراط فى سلك التعليم العالي.

والحق - أيضًا - أن اللجان العلمية الفاحصة والمتابعة قد انطلقت من استشعار مهمتها القومية ورسالتها الحضارية مع تقدير حجم التبعة المجتمعية فى محاولة تجاوز حالة الترهل العلمي، والخلاص من الحشو والتكرار والتزيُّد إلى مرحلة التنقية والاصطفاء المنهجي، بما يمثل إضافة تفرضها طبيعة المتغيِّر الثقافى بكل صوره ومستوياته.

وبقى من واجب المجتمع أن يتفاعل مع المناهج الجديدة - نقدًا ومراجعة - من حيث استيعاب أهدافها وفلسفتها؛ باعتباره خطوة على الطريق يتوقع بعدها تحولات جذرية من خلال المراجعات الشاملة لبرامج التعليم عبر كل مراحله، ولاسيما أن المرحلة الجامعية فى طريقها - على قدم وساق - عبر تطوير المناهج، ومحاولة تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس، وتدريب الطلاب ورعاية المتفوقين والموهوبين، وتشجيع الابتكار والتميُّز، إلى جانب الاهتمام بالجودة وتعزيز التنافسية، مع الرعاية الخاصة للأنشطة الطلابية بكل صورها.

فى هذه المسارات تكون الخطوة الأولى التى اتخذت فى وزارة التربية والتعليم فى حاجة إلى أن تستكمل من خلال الأقسام العلمية المتخصصة فى الجامعات، باعتبار الأقسام هى المؤسسات الحاكمة للوائحها، وهى - أيضا - المعبرة عن قدرتها على تطوير مقرراتها، دون انتظار إلى مناهج ورؤى فوقية عامة، على غرار ما يتطلبه التعليم العام نتيجة الخلاف البدهى والطبيعى بين الأنظمة والمستويات العلمية والتربوية..

فهل آن لأقسامنا العلمية أن تسير فى هذا الاتجاه فى تجديد مناهجها، وتحديث

وسائل تقويم الطلاب، وضمان سلامة المرجعية والتعدُّدية الفكرية، والاتجاه إلى التأليف الجماعى وسقوط فكرة الكتاب الواحد والمذكرة الجامعية، التى أدت إلى صور من التردى العلمى فى الوسط الطلابى تجاه حقائق المعرفة ومصادرها العصرية فى شكلها المتدفق والمركب؟!.

والكلمة هنا هادفة ـ بالدرجة الأولى ـ إلى محاولة الخروج من عدة ثقافات إلى أخرى مضادة لها؛ فإن نجحنا فى ذلك فقد حقق الحوار ما نتغياه، وإن وفقنا فى بعضه فقد حققنا نسبة من ذلك النجاح؛ وإن أصبنا فى قليله فقد وضعنا أيدينا على الحقيقة بغية الوعى بأبعادها ومحاولة الخروج من حالة الإحباط إلى ساحة الأمل، التى تتراءى لنا.. وقد حفلت بثقافة العمل والإنجاز بديلًا عن ثقافة القول والشعارات والمزايدات والمبالغة، ومثل ذلك ما قد يطرأ على منظومة الثقافات الكبرى، ومنها : ثقافة الانتماء والمواطنة بديلًا عن الاغتراب والتمرد والرفض، وثقافة العطاء والتطوع بديلًا عن الأثرة والأنانية وهيمنة الذات، وثقافة التلاقى والتفاعل بدلًا من الانشطار والتشنج والاستعلاء، وثقافة الإتقان والتفانى بدلًا من الاستخفاف والتهاون، وثقافة البناء والتعمير والتنمية، بدلًا من الهدم والتخريب والتدمير، وثقافة الوفاء والاعتراف والتواصل بديلًا عن الجحود والانقطاع والفرقة، وثقافة الاندماج وعمل الفريق بعيدًا عن التوهج وتضخم الذات، وثقافة الانفتاح والتلقى بعيدًا عن التبعية والتماهى والانبهار، وثقافة الوسطية والاستنارة بديلًا عن الانغلاق والجمود والانكماش، وثقافة التعددية والوعى بديلًا عن التأزم والتقوقع والتخلف، وثقافة المناهج والعلمية الجادة بعيدًا عن العشوائية والارتجال والفوضى، وثقافة التفعيل والتنفيذ بديلًا عن الادعاء والتزييف والوهم، وثقافة الثقة بالذات والأمة بديلًا عن التجاهل والتفريط، وثقافة الوحدة والتكتل بعيدًا عن التشرذم والانقسام والتشتت، وثقافة الحوار والمشترك الإنسانى بديلًا عن الصراع والتصادمية.

والله ـ سبحانه ـ ولى التوفيق.

طبعة خاصة تصدرها
الدار المصرية اللبنانية
ضمن مشروع مكتبة الأسرة





ستظل القراءة هى المظلة الرئيسية
للبناء الروحى والفكرى والوجدانى
للإنسان، والثقافة هى بكل المقاييس
أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل
و«ثقافة السلام» هى الضمان الأكيد
لإرساء دعائم الأمن والسلام الاجتماعى،
والتسامح ومكافحة العنف، ونشر العلم
والمحبة والإخاء والديمقراطية،
والتواصل مع الحضارات الأخرى.

سوزان مبارك





الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٠ را جنيه